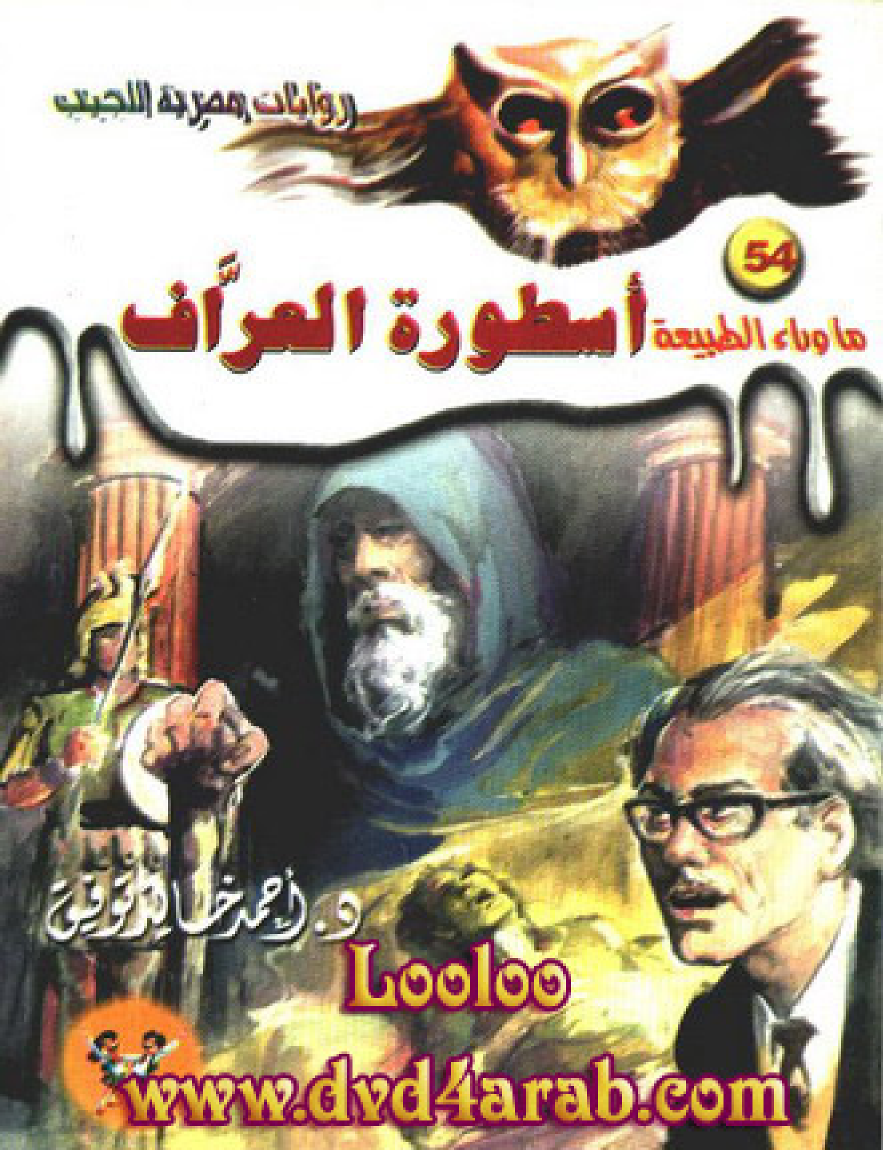

روايات مصرية للجيب
54
ما وراء الطبيعة
أسطورة العرّاف
د. أحمد خالد توفيق
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

ولكن لماذا لا أحكى قصة أخرى ؟

تقولون إن علىّ أن أنهى القصة الأولى التى بدأتها ، وإننى لأجد أن هذا طلب غريب وغير منطقى .. لماذا تفترض أن على من يبدأ قصة أن ينهيها ؟ لو كان هذا صحيحًا لانتهت كل الأسئلة الكونية التى لن يجيب عنها أحد أبدًا .. هل كانت النظرة الأخيرة التى رمتك بها (ريم) نظرة حب أم كراهية ؟ أين تذهب الفصول المنصرمة والنجوم المحترقة ، وأين تغفو الشهب ؟ ماذا قال الحاج (الشمندورى) قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ تلك الكلمات الهامسة التى لم يفهمها أحد .. كل هذه قصص بدأتها الحياة ولم تكملها قط .. وعلى قدر علمى لم يجرؤ أحد على أن يلومها على ذلك ..

لماذا تطلبون منى أنا العجوز أن أشذ عن القاعدة ؟

الليلة أحكى لكم قصة (ملك الذباب) .. إنها ممتعة ولسوف تروق لكم .. صدقونى .. إنها أجمل من باقى قصة الليلة السابقة .. إنها قصة شابة والشباب أفضل من الشيوخ دومًا .. إن ...

أرى أنكم فعلاً متضايقون .. ليس هذا مزاحًا .. إن بعض الوجوه ترمقنى بكراهية حقيقية ، وبعض الأقدام تضرب الأرض فى غل ، ولولا أنه قد تمت تربيتكم جيدًا ، لقتلنى البعض ..

لكن .. أنا أكره أن أكون كريهًا .. ويضايقنى أن أضايق الآخرين .

دعونا نستكمل القصة ..

لا .. لاداعى للملخصات ، لأن الكتيب السابق لم يضع بعد .. إنه لدى كل منكم حتى هواة وضع الكتب على جهاز التلفاز أو تحت الفراش .. سأبدأ فورًا وأعتمد عليكم فى أن تذكرونى بما يفوتنى من تفاصيل .. أعتقد أننا قد توقفنا عندما .....

* * *

أنت تخاف زحل ، وأنا أخاف رب زحل .. أنت ترجو المشترى وأنا أرجو رب المشترى .. وأنت تغدو بالاستشارة ، وأنا أغدو بالاستخارة .. فكم بيننا ؟

الإمام النووى يتحدى منجمًا يهوديًا شهيرًا

١ـ سبورينا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شىء ينتهى ..

* * *

اليوم الخامس عشر من مارس ..

كل هذا جميل .. لكن لا بد من أن نذكر معلومة بسيطة هى أننا فى العام 44 قبل الميلاد ..

ترون هذا الرجل الملتحى .. الرجل المرتجف .. الرجل مجنون النظرات ؟ إنه عراف .. هذا واضح ولا يمكن أن تخطئه العين .. فلو كتب على صدره أنه عراف لما كان مقنعًا بهذا الشكل ..

المكان ؟ ظننت هذا واضحًا .. إنها (روما) أعظم مدينة فى الأرض وقتها .. الطرقات الممهدة بالعناية والمبانى بأعمدتها ذات الطابع الرومانى المميز .. والتماثيل الشامخة فى الطرقات .. الحمّام العام حيث يقوم العبيد بتسخين المياه ، وشبكة الصرف المعقدة تحت الأرض ..

هذا البيت الفاخر ، وهذا البستان الذى تم تنسيقه بعناية بالغة . إن الرجل يفتح الباب المعدنى ويتقدم .. يرتجف أكثر من اللازم فى الواقع كأنما يعرف أن هذه من لوازم شخصيته .. وينحنى على عصا خشبية لأن هذا هو البروتوكول ..

حارسان يعترضان طريقه .. وكلاهما من الطراز الرومانى مفتول العضلات المدجج بالسلاح والدروع ..

ـ « أريد قيصر .. »

لاحظ أن الكلام هو مزيج من اللاتينية واللهجة الشعبية التى ستصير بعد قرون هى اللغة الإيطالية ..

الرمحان متقاطعان أمام وجهه بينما يسأله أحد الرجلين فى صرامة :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « مسألة خاصة .. قل له إننى العراف (سبورينا .. »

ـ « جاء أمس .. »

قالها أحدهما وهو يرمق الآخر فى ذكاء .. ثم نظر إلى الرجل ، وغمغم متهكمًا :

ـ « أنت تعرف أن (قيصر) لا يبالى بكم معشر العرافين .. ما الذى تحاول إثباته ؟ »

ـ « الأمر بينى وبينه .. »

ومن الحارس المتشكك انتقل الخبر إلى العبد الأول فالثانى .. حتى وصل إلى (يوليوس قيصر) الذى كان يتأهب للخروج ..

قال لهم فى تململ وهو يصلح من وضع عباءته على كتفه بمساعدة أحد العبيد :

ـ « مرة أخرى ! لا وقت لدى لهذا السخف .. »

ثم فكر قليلاً وقال بذلك القرف الأرستقراطى الجدير بالأباطرة :

ـ « ولكن .. أففففففففففف ! دعوه يدخل ! »

ثم فرد قامته المهيبة الشبيهة بتمثال فى المتحف الرومانى ، ووضع قبضته فى خصره ونظر إلى صورته فى المرآة .. ليس سيئًا .. صحيح أنه شيخ .. لكنه ما زال قويًا يصلح لأن يثير الهيبة فى القلوب .. ما زال قادرًا على إخراس معارضيه والسيطرة على روما بقبضة حديدية ..

بل ـ وهذا غريب ـ مازال قادرًا على أن تهيم بحبه ملكة مصرية جميلة من نسل البطالمة .. ملكة اسمها (كليوباترا) .. زوجته لاتعرف هذا .. لا .. بل هى تعرف طبعًا .. ما أكثر الجواسيس ..

لكنه مازال قويًا ومازال مهيبًا ..

جاءت زوجته وكانت عيناها منتفختين تشيان بليلة سوداء ..

سألته وهى تصلح من وضع العباءة على كتفيه كأنما لم يرق لها ما قام به فعلاً :

ـ « هل صرت على ما يرام ؟ »

تحسس عنقه بإصبعين حيث تلك العقدة اللمفاوية التى تفضح اللوزتين ، وقال :

ـ « لا أظن .. مازلت محمومًا .. لكن هذه أشياء لاتمنع (قيصر) من العمل .. ثم إن جمعًا غفيرًا ينتظرنى فى المجلس .. لايمكن ألا أذهب .. »

كانت الآن تتكلم كزوجة مصرية قلقة تشعر بأن عينها اليسرى (ترف) .. قالت له :

ـ « الحق أقول لك إننى حلمت .. حلمت بأن برج دارى ينهار .. أليس هذا نذيرًا ؟ »

ـ « بل هو هراء .. »

فى هذه اللحظة دخل العراف بخطواته الثقيلة البطيئة .. وكان مازال يرتجف كورقة .. وصوت ضربات عصاه كأنه النذير .. وخلفه كان حارسان يبدو عليهما الاستمتاع ..

ـ « هلم .. قل ما لديك .. »

ـ « أكرر رجائى يا (قيصر) .. »

ـ « تريد أن أبقى فى الدار اليوم ؟ »

ـ « هذا رجائى الوحيد .. »

ـ « وأترك الشيوخ فى المجلس ينتظرون ؟ »

ـ « إنهم لايفعلون إلا أن ينتظروك .. »

ابتسم (قيصر) ونظر إلى الشمس فى الخارج .. شمس الشتاء البهيجة المفعمة بالأمل .. هذا يوم لا يمكن أن يحدث فيه مكروه .. قال للعراف :

ـ « هلم أيها العراف المشئوم .. ألا ترى أنك أنذرتنى كثيرًا من اليوم الخامس عشر من مارس .. وها هو ذا قد جاء بلا متاعب ؟ »

بلهجة يضغط عليها ، قال العراف :

ـ « لكنه لم ينته بعد يا (قيصر) ! »

هتفت الزوجة وقد بدأت الفئران كلها تعبث تحت عباءتها :

ـ « أنت ترى .. إنه يقول نفس ما قلته أنا .. لا تذهب اليوم .. إن يومًا واحدًا لن يحدث كارثة .. »

ـ « المسألة مسألة مبدأ .. »

قالها وعاد يلف العباءة حول كتفه الآخر :

ـ « يبدأ المرء بتنازل بسيط ثم تتحول حياته كلها إلى استسلام .. »

ثم أشار إلى حراسه بكبرياء .. وهتف وهو يتجه إلى الباب :

ـ « هلموا ! »

فى اللحظة التالية حدث شىء يصعب تفسيره ، وإن تحدثت عنه كتب التاريخ ..

لقد هوى تمثال (قيصر) الموضوع على عمود فى الردهة .. هوى من دون أن يلمسه أحد إلى الأرض ، ليتهشم .. ودوى الصوت مع المفاجأة ، فلو أن رأس (يوليوس قيصر) الحقيقى هو الذى هوى إلى الأرض وتهشم لما أصيب الموجودون بكل هذا الذعر .. وقفوا يرمقون الشظايا المتناثرة فى غباء وبلاهة ..

ـ « يا لإهمال هؤلاء العبيد ! »

قالها وانطلق بخطواته السريعة إلى الخارج ..

الحق أن الرجل يتمتع بشجاعة نادرة ..

* * *

أردت القول إن الرجل (كان) يتمتع بشجاعة نادرة ..

نحن نعرف طبعًا أنه لقى حتفه فى مجلس الشيوخ قبل أن ينتهى اليوم ..

لقد فرغ من الاجتماع ، وخرج ومن حوله بعض النواب .. كانوا يتكلمون على درجات المجلس الرخامية .. وكانت هناك مشكلة ما لا أذكر ما هى .. لكن (بروتس) ربيبه والأثير لديه دنا منه أكثر من سواه ..

فى اللحظة التالية ـ كما نعلم ـ أخرج المتآمرون جميعًا خناجرهم ، وانهالت الطعنات على جسد الشيخ .. كان يقابل كل طعنة لا بألم بل بدهشة لا تصدق .. هذا اغتيال .. والاغتيال ـ كما يقول الساخر العظيم (برنارد شو) ـ هو أعنف أنواع الرقابة !

ثم جاءت الطعنة الأخيرة .. هذه بالذات آلمته .. لا نخطئ لو قلنا إنها طعنته طعنًا .. لقد كانت طعنة

(بروتس) .. ولقد نظر إلى قاتله الأخير فى ذهول لحظة ثم قال قولته الشهيرة :

ـ « حتى أنت يا (بروتس) ؟ إذن فليسقط (قيصر) .. »

ثم هوى على الأرض تحت تمثال (بومبى) الذى قتله هو نفسه يومًا ما ..

فيما بعد سيخرج المتآمرون للناس كى يشرحوا لهم لماذا قتلوا الرجل .. سيقولون إن السبب أنه كان طموحًا أكثر من اللازم .. (بروتس) قال هذا و (بروتس) رجل شريف .. فلابد أنه صادق .. إن من قرءوا مسرحية (شكسبير) الرائعة (يوليوس قيصر) يعرفون كيف تطور هذا المشهد .. أما نحن فلا يعنينا هذا من قريب أو بعيد ..

إن الزحام يعم شوارع (روما) .. مع الغضب بسبب اغتيال القلب الكبير .. لكن أين ذهب العراف ؟ أين ذهب العراف (سبورينا) الذى تنبأ بمصرع (قيصر) ؟

هل يملك أحدكم جوابًا ؟

* * *

٢ ـ رفعت إسماعيل ..

نعود لموقفنا المعتاد ..

كنت الآن قد قبلت بالفعل حقيقة أننى قد دفنت حيًا ..

كان هنـاك أولاً ذلك الرعب الوحشى .. الرعب الـذى يفقدك كل تعقل أو بصيرة .. الرعب الذى يدفع المـرء إلى أن يهشم قبضته على الباب تهشيمًا .. ذلك الباب المعدنى الذى يفصلنى عن عالم الشمس .. لكنه كـان موصدًا بعناية .. وكان صوت القرع عليـه مكتومًـا .. بالطبع لأن أكوامًا من التربة تسده من الخارج ..

أدق .. أدق .. حتى أفقد الرشد ساعة .. ساعتين ؟ ثلاثًا ؟

أصحو والظمأ يحرق حلقى .. ومن جديـد أدرك أننى هنا ، وأن الذعر يقتلنى ..

لكنه لا يفعل !

أدق وأدق .. هذا هو الهلـع .. الـذى يفقـدك كـل قدرة على التفكير المنطقى .. لكن أى تفكـير منطقـى هنا ؟ ما جدواه ؟

على قدر ما أعلم لاتوجد حلول من أى نوع .. لاتوجد هواتف ولا أجراس ولا معدات أقتحم بها الباب ..

أنا مجرد تمامًا .. واهن تمامًا ..

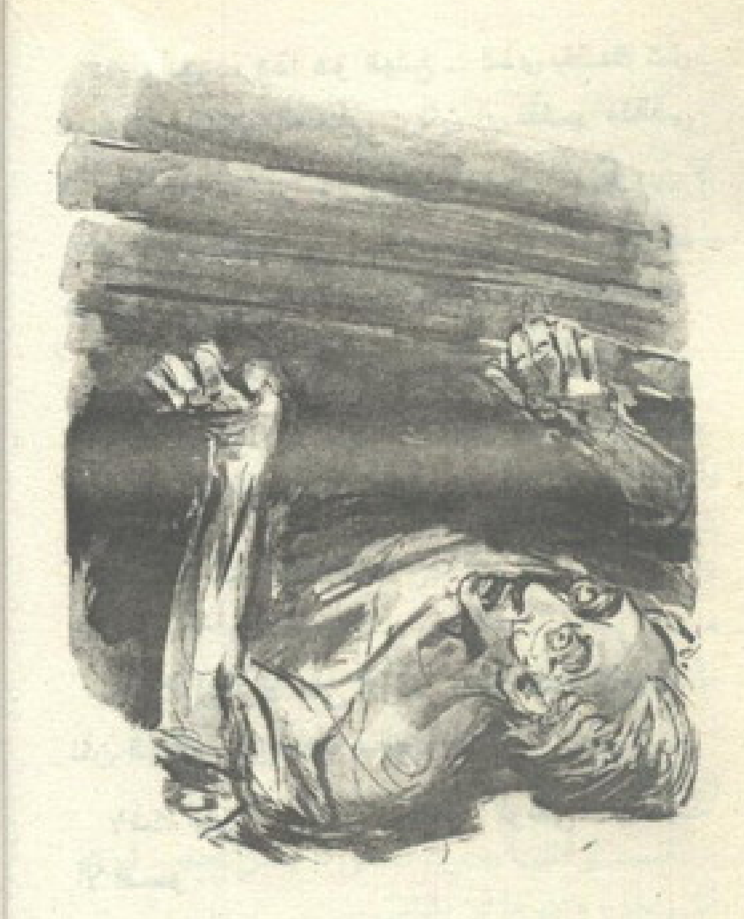
إن الليل يقترب .. الضوء الخافت المتسلل يخفت بالتدريج وأنا أرتجف هلعًا ..

وأدركت أن قلبـى لـن يتحمـل كـل هـذا الانفعـال .. يجب أن أهدأ قليلاً ..

حاولت أن أرقد على الأرض وآخذ نفسًـا عميقًـا .. لكن الهواء خانق كريه معدوم تقريبًا ..

لاشك أننى لم أنم ولكـن فقدت الوعـى .. وتمنيت ألا أصحو ..

لكنى صحوت ..



أدق وأدق .. هذا هو الهلع .. الذى يفقدك كل قدرة على التفكير المنطقى ..

ومن جديد عاد الذعر يغمرنى .. جميل أن يتمتع المرء بالقدرة على الذعر .. كنت أحسب أنه ما من شىء يؤثر فى .. هذا الذعر يدل على أننى مازلت حيًا .. ولن يطول هذا ..

* * *

قالت لى (ماجى) :

ـ « للأبد ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ستبقى ملكى للأبد ؟ »

ـ « نعم .. وحتى تحترق النجوم . وحتى ... »

ولم أكمل العبارة لأن .. لأن النجوم كلها احترقت ..

* * *

وقال لى د. (لوسيفر) :

ـ « مندهش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه .. »

لاشك أنه بى يسعد ولى قلبه يطرب ..

* * *

وقال لى خالى وهو يمسك بالعصا .. العصا الرفيعة التى تذكرك بالخيزرانة :

ـ « وجدت هذا الكتاب الرقيع فى مكتبك يا ولد يا (رفعت) .. إن البداية هكذا دائمًا ، ولسوف أجعل يديك تتألمان كلما رأيت كتابًا مثل هذا طيلة حياتك .. »

والكتاب الرقيع كان ـ طبعًا ـ ديوان شعر لـ (ناجى) .. كان خالى رجلاً طيبًا لكنه يؤمن أن المراهق هو مشروع زنديق .. وأنه لو غفل عنى ثانية واحدة لتحولت إلى (أبو نواس) .. يجب أن يعاملنى بقسوة .. يعاملنى بعنف .. يعاملنى بوحشية كى لا يكتمل المشروع ..

آلمتنى يداى .. لكنى لم أتعلم كراهية الشعر ..

* * *

وأصحو من الهذيان قائلاً لنفسى : مرحى ! لقد بدأت أكلمهم وأسمعهم .. إنه الجنون .. لكن كيف يكون الجنون أليمًا قاسيًا بهذا الشكل ؟ كنت أعتبره

الراحة ذاتها .. حمقى كل من قالوا إن (المجانين فى نعيم) إذن .. المجانين فى جحيم ..

الجديد فى الأمر أننى بدأت أرى نفسى راقدًا بين هذه الأجساد .. قلت لنفسى إنه لا بأس بهذا .. لكن كيف أرى نفسى إذا كنت أنا نفسى ؟ من أكون إذن ؟

لحسن الحظ أن (رفعت إسماعيل) سليم إذن .. إننى أراه بوضوح .. هو ليس فى خطر على الإطلاق .. إنه السلام ..

لقد دنت النهاية .. فلأتل الشهادتين ، ولكن عسى ألا أكون تأخرت أكثر من اللازم .. عسى ألا أكون قد مت فعلاً ..

* * *

كان الظلام يغمر المكان حين شعرت بلفحة الهواء البارد على وجهى ..

شعرت باليد الغليظة التى تمسك بى وتجرنى إلى الخارج .. شعرت باللهاث ..

وحين فتحت عينى كانت السماء مرصعة بالنجوم .. ومن مرقدى على الأرض كنت أرى الرجلين كجبلين تراهما من أسفل .. وكان أحدهما يحمل كلوبًا مشتعلاً لا يكف عن الأزيز .. من الغريب أننى كنت أرى بدقة كل ذبابة مقابر وكل بعوضة كانت تحوم حول ضوئه .. وسألت نفسى : لصوص مقابر بهذه السرعة ؟ إنهم لا يضيعون وقتًا ..

وأسمع كلامًا لا أفهمه :

ـ « ألم أقل لك إنه حى ! »

ـ « ربما ليس هو .. ربما كان بسم الله الرحمن الرحيم .. »

ـ « لا .. هذا هو .. لاشك فى هذا .. »

ـ « ولكن كيف ؟ كيف ؟ »

وهناك من يبكى ويسبح الله .. وهناك من يفك عنى القيود التى تحاصرنى من كل صوب .. وشعرت بالماء على شفتى المتقرحة فرحت أشرب كالجمل بعد رحلة صحراوية طالت ..

أخيرًا بدأت أفهم أين أنا .. لكنى لم أجسر على أن أعتبر أننى نجوت ..

ودنا منى أول وجه فأدركت أننى رأيته فى مكان ما .. ولكن أين ؟

ـ « لا تخف يا (رفعت) يا أخى .. أنا (رضا) .. أخوك .. »

وانفجر فى البكاء وراح يحتضننى .. بينما الآخر يقول بصوت كأنه من عالم آخر :

ـ « إنه مذهول .. كان الله فى عونه .. »

وثمة من يقول لرابع :

ـ « أغلق هذه المقبرة .. سوف نحمله نحن .. »

أنا مستند جالسًا إلى جدار رطب .. والظلام من حولى .. وهذا الوجه .. هذا الوجه أعرفه .. كان تذكره أسهل علىّ من أى وجه آخر ..

ـ « كنت تعرف ! »

قلتها بصوت مبحوح ثم بصقت على الأرض جواره ، لكن لم يكن فى فمى لعاب على كل حال ..

قال (فوزى شفيق) :

ـ « لم أتحمل .. وليتك تعرف ما ضحيت به كى أنقذك .. لم يكن لى الحق فى هذا »

ثم غمغم وهو يرمق الظلام :

ـ « لم يكن لى الحق على الإطلاق .. »

بصوت مبحوح عدت أقول :

ـ « أنت .. تركتنى .. يومين .. وكنت .. تعر ... »

هنا جاء صوت (رضا) يقول فى رفق :

ـ « مع من تتكلم يا (رفعت) ؟ يا لك من مسكين ! سامحنا يا أخى .. »

رحت أبحث بين الوجوه الثلاثة عن (شفيق) فلم أر له أثرًا .. هل كنت أخرف ؟ لن أندهش لحظة ..

* * *

للمرة العاشرة راحت (غيداء) تقرع الباب بيدها الرقيقة الشبيهة بالكريستال .. كان من الواضح أن محاولة أخرى لن تؤدى إلا إلى أن يتناثر البلور المهشم على درجات السلم ..

وانفتح الباب المجاور ، وظهر وجه كئيب جدير بقصص الرعب القوطى ، حتى إنها لم تكن لتدهش لو دوت الرعود ومضت البروق فجأة :

ـ « من تريدين يا آنسة ؟ »

كانت عيناها الجميلتان دامعتين حمراوين ، وقد التفتت إلى الجار المخيف ، وقالت :

ـ « د. (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) .. هذا بيته .. أليس كذلك ؟ »

قال فى تردد :

ـ « بلى .. أنا (عزت) جاره ، وهو مختف من فترة .. هل يمكن أن ... »

صاحت فى هلع ، وهى تتراجع عن الباب وقد راحت زاوية فمها ترتجف :

- « لا بد من أن أجده حالاً لا بد ! »

وقبل أن يفهم ما حدث كانت ترحل لتثب الدرجات أربعًا أربعًا وهو ما يناسب نحولها تمامًا ..

وكان (عزت) قد اعتاد هذه الأمور .. إن من يكن جارًا لـ (رفعت إسماعيل) عليه أن يعتاد أى شىء .. ولو وجد عند الباب عشرة من (الزومبى) تتساقط أطرافهم وأصابعهم طيلة الوقت ، لما فعل سوى ما فعله الآن ..

قال شيئًا ما عن غرابة أطوار الناس هذه الأيام ، وأغلق الباب وعاد إلى النحت ..

* * *

احتجت كما تعرفون إلى أسبوع كامل كى أسترد قواى ، وقد قضيت الوقت فى دارنا تعنى بى (رئيفة)

التى كانت متاعبها تكفيها .. كان جسمى مليئًا بالرضوض لكن لم تكسر أية عظمة لشدة الغرابة ، ويبدو أننى كنت أعانى ما تسميه التقارير الطبية بـ (ما بعد الارتجاج) ..

طبعًا كان كل من يأتى يحكى لى القصة من البداية .. بكل تفاصيلها .. كيف أقسم للناس إننى كنت أبدو حيًا جدًا ، وإنه رأى خلجة فى ركن فمى ، لكن (الحانوتى) لم يصدق حرفًا .. إلخ ..

طبعًا لن أغرقك فى هذه التفاصيل المقبضة ، فقد انتهى الأمر والحمد لله برغم أن ذكراه باقية للأبد ، لكن الخلاصة أننى لم أتصور قط كم أن الناس أذكياء عباقرة .. لقد كانت القرية تعج فى ذلك اليوم بمن عرفوا يقينًا أننى حى ، لكنهم أحجموا عن إخبار الآخرين بذلك ..

السيارة ؟ لم تعد لدى سيارة .. لقد وجدنى الفلاحون مقلوبًا على جانب الطريق ، وفشلوا فى إعادتى إلى

رشدى ، ثم جاء طبيب عبقرى من الوحدة الصحية للقرية المجاورة وضع مسماعه على صدرى ، ثم مط شفتيه وقال وهو يتنهد :

ـ « البقية فى حياتكم .. »

لم تكن الجنازة مهيبة جدًا ولا ضخمة جدًا ، ولحسن الحظ أننى لم أحضرها ، لأنهم لم يبلغوا إلا عددًا قليلاً من أقاربى .. طبعًا لم يخطروا الكلية بعد لحسن الحظ .. أحمد الله على أن أحدًا فى القاهرة لم يعرف ، وإلا لكان على أن أحكى القصة ألف مرة .. بالإضافة إلى أن الموت من الأمور الخصوصية التى أكره أن تصير على لسان الجميع ..

انتهى الأمر بسرعة ، لولا أن (رضا) أخى وهو جالس فى سرادق العزاء .. جاءه شاب ليخبره بشىء غريب ..

بصوت واهن سألت (رضا) :

ـ « كيف كان يبدو ؟ »

فكر (رضا) وضيق عينيه فى ذكاء ثم قال :

ـ « ممتلئ هو .. طويل جدًا .. نعم .. طويل .. أصلع .. له شارب غليظ .. لون بشرته .. قمحى .. »

ولما كنت أعرف (رضا) وفراسته فقد عرفت صفات الفتى بوضوح .. إنه نحيل متوسط القامة أسمر اللون له شعر ثائر يتدلى على كتفه ، وبالطبع بلا شارب .. إنه يصف ـ أو لا يصف ـ (فوزى شفيق) ..

ـ « قال لى إنك حى .. طبعًا لم أسمح له بهذا الكلام وجذبته من تلابيبه وكدت أضربه .. لكنه كان مصرًا وراح يحلف بأغلظ الأيمان .. قال إنك مصاب بمرض يجعلك تتخشب ويحسبك الناس ميتًا .. أقسم على هذا وعلى أنه سمع صوت من يصرخ من داخل المقبرة .. أنا أكره إهانة الموتى .. طبعًا بدأت ضربه حتى سال الدم من أنفه .. لكنه قال لى وهو يعوى ألمًا : إن الله شهيد على أنه أخبرنى .. وإننى سأحمل دمك على رأسى إلى يوم القيامة .. »

- « بينى وبينك يا (رفعت) .. لعب الفأر فى عبى .. ماذا لو كان على حق ؟ وماذا لو كان مخطئًا ؟ لتكونن فضيحتى فى القرية (بجلاجل) وقتها ، ولسوف يقتلنى العار .. لأننى دنست قبر أخى ..

- « وبعد نهار من التردد اتجهت إلى اللحاد ومعى ابن عمى و (فرج) .. وكان الرجل لا يعرف ما يقول ، لكنى كنت مصرًا على أن يفتح لنا المقبرة سرًا فى الليل .. »

سألته وأنا أعرف الإجابة :

- « لكن ذلك الفتى الذى أخبرك كان معكم .. أليس كذلك ؟ »

- « نعم يا (رفعت) .. لم يك معنا .. بل إنه تبخر .. فص ملح وذاب .. كان اسمه (مرسى أبو مازن) .. بالتأكيد كان اسمه (مرسى أبو مازن) .. نعم .. هو كذلك »

- « بل (فوزى شفيق) على ما أعتقد ؟ »

ضرب رأسه متذكرًا وقال :

- « نعم .. نعم .. (فوزى شفيق) .. إن له نفس نغمة (مرسى أبو مازن) كما تعلم .. المهم أننا فتحنا القبر وكان هذا خير ما فعلت .. رباه ! كلما فكرت فى أننى كنت سأرفض أن ... »

وانفجر فى البكاء وارتمى فى أحضانى ..

كانت أمامى متاعب لا بأس بها الآن ..

إن مشكلة أن تثبت أمام الجهاز الإدارى والحكومى - فى بلد الكاتب الجالس القرفصاء - أنك عدت للحياة لأمر يغريك بأن تعود إلى الموت لتريح وتستريح ..

لكنى ممتن لـ (فوزى شفيق) .. ممتن له حقًا .. فلولاه ...

* * *

٣ ـ محمود زاهر ..

حين عدت إلى القاهرة ، استمتعت كثيرًا بـأن أحدًا لم يسألنى أو يقل شيئًا .. لم يعرف أحد ولم يتصور أن هذا الكهل النحيل كان سجين القبر منذ أيام ..

طبعًا لن أتكلم عـن الشرخ النفسى الذى أصـابنى ، ولا عن حالة الوهن العامة والنوراستانيا التـى كـانت تجعلنى أترنح كأنما أنا موشك على فقدان الوعـى .. أنا أكره أن يقضى الإنسـان حياتـه فـى وصـف آلامـه وأنـواع الطعـام التـى تسبب لـه الانتفـاخ وتلـك التـى تسبب الإسـهال .. كل واحـد منـا مفعـم بالمشـاكل ، ولايحتمل المزيد ما لم تكن هذه مهنته .. فقط الطبيب والمحامى وصاحب ركن (لمشكلتك حل) يسـمعون مشاكل الآخرين ولكن مقابل مال !

لا أدرى لمـاذا جاء الفتـى (محمـود زاهـر) إلـى مكتبى .. إنها العطلة الصيفية قد بدأت و ....

ثم تذكرت .. إنه قلق .. لقد مر اليوم الموعود ..

كان أحمق كعهدى بـه ، نحيلاً كعهدى بـه ، ينقب بإصبعه فـى أنفـه كلمـا ارتبـك كعهـدى بـه ، وراح يرجف كورقة .. وقال :

ـ « دكتور .. حمدًا لله ! جئت مكتبك ثلاث مرات الأسبوع الماضى .. »

ـ « ووجدتنى ؟ »

قال فى جدية تامة :

ـ « لا .. لا .. »

قلت وأنا أشير إلى نفسى :

ـ « كما ترى أنا بخير .. أكثر إرهاقًا ونحولاً وكـل عظمـة فـى جسدى تتـألم ، لكنـى بخـير .. ولسـوف أفترض أنك لا تعرف ما حدث .. »

قال فى صدق لمسنى :

ـ « بالطبع يا سيدى .. كنت أعرف أن هناك كارثة مريعة ستحدث ، لكنى لم أعرف كنهها .. »

أنا أصدقه .. ليست عندى أسباب كى أكذب ما يقول .. لكن هذا لا يمنع من أنه يعرف بعض أشياء لا أعرفها وأريد أن أعرفها ..

نهضت - دون كلمة - إلى الباب ، واصطدمت بكتفه فتنحى فى ارتباك .. ودون كلمة واحدة أخرجت المفتاح ، وأغلقت الباب من الداخل .. ثم إننى عدت إلى مكتبى وعقدت أناملى متشابكة تحت ذقنى ورحت أنظر إليه كأن شيئًا لم يحدث ..

قال وقد بدأت (الكلوستروفوبيا) تتحرك فى جوفه :

- « لكن .. لكن .. لماذا يا سيدى ؟ »

قلت فى برود (فأنا أعرف أحيانًا كيف أبدو رهيبًا) :

- « أريد منك معلومات دقيقة .. هناك من يدعى (فوزى شفيق) .. أعتقد أن لديك فكرة عن الموضوع ؟ »

راح ينظر لى وللباب فى هلع وتوجس .. لابد أنه قدر أننى جننت تمامًا .. هذه هى اللحظة التى ينقضون فيها على ضحاياهم ليقضموا حناجرهم .. كلهم يفعل هذا ..

قال لى وهو يتراجع ليلتصق بالباب :

- « ليس اسمه (فوزى شفيق) .. أحيانًا يزعم أن اسمه (ماهر عبد الفتاح) .. »

- « وهو الذى أخبرك بما ينتظرنى .. »

- « نعم .. »

- « وهو الذى أعطاك أسئلة الامتحان ؟ »

هنا فتح فاه فى بلاهة .. بدا كالفأر فى مصيدة ، لكن لم يكن هذا بالضبط هو ما أريده ..

قلت له ضاغطًا على كلماتى :

- « اسمع يا بنى .. أنا لن أستطيع أن أعاقبك بشكل رسمى على ما فعلت ، لأن أحدًا لن يصدقنى .. كل ما سأفعله



قلت له ضاغطًا على كلماتى :
ـ « اسمع يا بنى .. أنا لن أستطيع أن أعاقبك بشكل رسمى .. »

هو أن أجعل حياتك عصيبة .. وثق من أننى سأفعل .. لكن يجب أن أعرف أولاً متى وكيف قابلت هذا الرجل أول مرة .. »

* * *

قال (محمود زاهر) فى رعب لا أستغربه (لا تنسوا أنى أعرف كيف أكون مرعبًا) :

ـ « جاءنى ذات يوم مع (شعبان) صديقى وابن قريتى .. أنت تعرف أننى أقيم فى شقة واحدة مفروشة مع خمسة من الشباب ، أكثرنا فى ذات الكلية .. »

كنت أعرف هذه القصة تمامًا .. فلا تنسوا أننى ريفى وعشت فى ظروف مشابهة جل فترة الدراسة .. حياة قاسية لكنك تتعاطى مخدرًا حلالاً فعالاً اسمه (الطموح) .. غدًا سأكون أفضل .. غدًا سأكون ثريًا .. غدًا يأتى مصورو (تايمز) كى يلتقطوا صورة لهذا الفراش وهذه الدرجات المهشمة .. ولسوف يرون

تلك العلامات التى كتبتها أنت على الجدار جوار رأسك فى ليلة باردة تعسة : ثلاثة أيام لمادة كذا .. يومان لمادة كذا .. لا بد من اختلاق وقت لماذا كذا .. إلخ ..

لقد تحدثت عن مثل هذه التجربة بالتفصيل فى (بيت الأفاعى) فلا داعى للتكرار .. نعود لقصة (محمود) :

ـ « لقد زعم أنه قريبى ومن قريتى لكنه نزح عنها منذ زمن ، وكان يعرف كل شىء عن عمى وخالى ومشكلة القيراط المتنازع عليه .. إلخ .. وبدأ يزورنى بانتظام ويضيع وقتى بانتظام .. فى الحقيقة لم يكن لطيف المعشر للغاية ، ولا أخجل من الاعتراف بأننى كنت أخافه إلى حد ما .. »

وفى ذات يوم اعترفت له بالحقيقة المريرة :

ـ « الامتحانات على الأبواب وليس من وقت يضيع .. »

لم أكن عبقريًا ولم أكن آمل فى أن أغير تاريخ الطب ، لكن ـ أنت تفهمنى ـ حتى البلطجية يهابون الامتحان ، ويحتاجون إلى وقت من العزلة قبله .. بينما هذا اللزج ...

قال لى فى ازدراء :

ـ « لا أحسبك ستحقق الكثير .. لو سمحت لى بالكلام فأنا أعتقد أنك محدود الذكاء ، والمثابرة لن تحقق لك أكثر من مستواك العقلى المحدد سلفًا .. من دون استذكار أنت راسب .. بالاستذكار العنيف ستنجح بكثير من العسر .. »

لم أجد ما أرد به بل بقيت فاغر الفم فى غباء .. لست من العباقرة الذين يردون على الإهانات فورًا كأنها مباراة تنس طاولة ..

أردف قائلاً :

ـ « إليك نصيحتى .. ستنزل الآن إلى أقرب مكتبة للكتب الطبية فتبتاع هذه المراجع .. »

وفى يدى وجدت حفنة من الجنيهات لم أر مثلها قط ، وفى اليد الأخرى وريقة عليها أسماء كتب باللاتينية .. بينما أردف الرجل :

- « هاك الكتب .. وحين تعود ستبحث عن إجابات هذه الأسئلة وتحفظها بعناية .. ولا بأس من التردد على مكتبة الكلية .. ستتعلم كيف تكتبها عند استيقاظك من النوم .. فى الحلم .. وأنت نائم .. فى أثناء الأكل .. وأنت تحتضر .. كم يبلغ مربع رقم اثنين ؟ »

شدهت للحظة ، ثم رددت بسرعة تلقائية :

- « يبلغ أربعًا .. »

ابتسم فى ثقة وتهكم وقال :

- « هذا ما أصبو إليه .. أريد أن تصير هذه الإجابات طبيعة ثانية لديك لا تحتاج إلى وقت من التفكير .. »

سألته فى جزع :

- « هل .. هل تعرف الامتحان ؟ »

- « لا يا أحمق .. إن سؤالاً من الأسئلة لم يكتب بعد .. لكن يجب أن تثق بى .. »

* * *

عند هذا الحد من القصة ، أوقفت الفتى وسألته :

- « ليكن .. لكن ألم يتحرك فى أعماقك ذلك العضو الضامر لديك المسمى بالضمير ؟ ألا ترى فى هذا غشًا صريحًا ؟ »

قال فى خجل :

- « بلى يا سيدى .. لكن لم أكن أستطيع التراجع وشخصية الرجل كانت كاسحة .. بينما أنا ... »

شخصيتى ضعيفة .. هذا ما يريد قوله .. والحقيقة أننى لم أستطع الآن أن ألوم الفتى تمامًا .. لقد كان فريسة معدومة الحيلة فى قبضة رجل مخيف غريب .. أى أنه لم يجلس مع (فوزى) ذات ليلة وعلى وجه كل منهما ضحكة شيطانية ، ليسرقا أسئلة الامتحان .. إن الفتى البائس هو من طراز (جعلوه فانجعل) ..

المهم أن الفتى حفظ الأسئلة إلى درجة الإجادة .. من الغريب أن الشك لم يخامره لحظة فى أنها صحيحة .. كان من الواضح أن (فوزى) ـ أو (ماهر) هذا ـ يعرف ما يقول ، وبالفعل برهنت الامتحانات على أن الرجل دقيق جداً ..

لكنه ـ (محمود) ـ لم يجسر بالطبع على سؤاله عن الامتحانات الشفهية . و (فوزى) لم يعرض خدماته .. كأنما اكتفى بأن يعرف (محمود) قدر ما يكفيه بالضبط للنجاح .. وأعلن أنه سيختفى من حياته تماماً ، لكنه يطلب منه خدمة لابد من تنفيذها ..

ـ « طلب أن تبيعه روحك طبعاً ؟ إن عقدة (فاوست) هذه ... »

لكن الفتى لم يكن قد سمع عن (فاوست) قط .. وبدا مستعداً لأن يقسم على أنه لم يلق (فاوست) ولم يتكلم معه .. فقط قال فى صدق :

ـ « طلب منى أن أحذرك مما سيحدث يوم 17 يونيو .. »

وهو ما حدث ، وكان محقاً كالعادة ..

بيد ثابتة فتحت باب الحجرة له كى يخرج ، لكنى أمسكت بمعصمه كى لا يفر ، وقلت له :

ـ « كيف أجد (ماهر) هذا ؟ »

ـ « لا أعرف يا سيدى .. »

ـ « وصديقك الذى جلبه لشقتك ؟ »

ـ « (شعبان) ؟ إنه فى القرية الآن يا سيدى .. الإجازة و ... »

قلت فى عصبية (فأنا أعرف كيف أبدو عصبياً) :

ـ « أريده .. يجب أن يتصل بى أو يأتى إلى هنا .. تذكر أننى أعرف عنك أشياء مرعبة الآن .. »

نظر لى فى هلع ، وأدركت أنه سيفعل كل ما آمره به .. لا أحب القمع لكنه أحياناً عظيم النفع ..

* * *

٤ـ شعبان أبو عبلة ..

(شعبان) ـ على النقيض من ابن قريته ـ ذكى بلاشك .. عينان خضراوان بلون البرسيم تلمعان تحت شعر بنى مجعد .. ليس من الطراز الذى يتعاطى الطموح لكنه ابن سياسة الممكن .. وعرفت أنه سينجح فى حياته من دون شك ، ليس لأن الطموح سيئ ، ولكن لأن ذكاءه مخيف ..

كان حذرًا حين جاءنى فى مكتبى ، وكان مختصرًا قاطعًا ..

قال لى :

ـ « (ماهر) هذا ليس صديقى .. قابلته فى السجل المدنى ، بينما أنا أستخرج هوية جديدة .. لفت نظره أننى من نفس قريته .. واعترف بأنه هجرها من زمن .. سألنى عن (محمود زاهر) قريبه .. وهكذا سارت الأمور .. كانت مصادفة غريبة .. »

كان هذا مخيبًا للأمل .. أى أنه لايعرف مسكنه ..

قلت له فى ضيق :

ـ « هذا مخيب للأمل .. أى أنك لاتعرف مسكنه .. »

قال وهو يفكر فى اهتمام :

ـ « كلا .. لقد أرانى بيته مرة .. قال لى إنه يسكن هناك .. »

وهذا ليس دليلاً .. حيلة قديمة عمرها ألف عام .. مثل حيلة رقم هاتف مرفق المياه الذى أعطيه لكل من يطلب رقم هاتفى .. لكنى قررت أن أمضى إلى النهاية ..

ـ « هل يمكن أن تدلنى عليه ؟ »

كان ذكيًا كما قلت ، ولهذا لم يضيع الوقت فى أسئلة سخيفة .. كان يعرف أن لدى غرضًا مهمًا ، وبالطبع لن أصارحه به .. فقط هو مرغم على أن يخبرنى ..

قال وهو يتهيأ للانصراف :

ـ « لابد من أن تأتى معى .. فهو بلا عنوان .. فقط أعرفه حين أراه .. لقد دخلته مرة .. »

هنا بدت لى المهمة غير عارية من النفع .. ثمة خيط .. ثمة شىء يمكن الإمساك به ..

* * *

طبعًا لم تكن معى سيارة .. سيارتى تقف الآن فى مدخل (كفر بدر) إلى جانب الطريق ، وقد تحولت إلى علبة تبغ تخلص منها كاره للتدخين ، بانتظار رأى تجار الخردة .. ويبدو أنها تحولت إلى عبرة وموعظة لمن يراها .. الأطفال الأشقياء الذين لا يشربون اللبن تتحول سياراتهم إلى هذا ..

وكان العنوان الذى بلغناه فى (حدائق الزيتون) .. لم يكن هناك مترو آنذاك ، وقد وصلنا بعد رحلة شاقة نوعًا فى قطار الضواحى .. وكانت هناك عدة شوارع اجتازها الفتى فى ثقة حتى بلغ منزلاً من طابقين ، وهناك وقف على الباب ونظر لى نظرة معناها (هذا هو العنوان .. هل لديك تعليمات ؟) ..

لم أرد . وكان هناك جرس جوار الباب المعنى الموصد فرحت أقرعه فى إلحاح وأنظر لأعلى ..

ـ « نعم ! »

كان هذا الواقف فى شرفة الطابق الثانى شابًا من الطراز المصرى التقليدى .. طالب هو فى الثانوية العامة غالبًا ، مجعد الشعر يقف بالفانلة الداخلية

وسروال منامته ، جوار قُلة الماء الموضوعة فى صينية لتبرد على سور الشرفة ..

صاح (شعبان) بأعلى صوته :

ـ « هل (ماهر) موجود ؟ »

توارى رأسه من الشرفة ، ثم سمعنا صوت شبشبه يضرب درجات السلم التى ينزلها اثنتين فى المرة ، وانزاح مزلاج وفتح لنا الباب وهو يلوك شيئًا فى فمه ..

ـ « (ماهر) فى الطابق الأول .. لكنه لم يغادر شقته منذ يومين .. »

ثم صعد الدرجات وأشار إلى باب شقة موصد ، وقال :

ـ « هذا هو .. اقرعا الباب ولكن بعنف ، لأنه لا يفتح إلا بعد إلحاح .. »

وقبل أن أسأله سؤالاً آخر كان قد صعد الدرجات بسرعة البرق ، تاركًا إيانا نرمق الباب للحظات ..

رفعت يدًا مترددة ، وقرعت .. لا رد .. قرعت .. لا رد ..

فى النهاية جاء الصوت المألوف من الداخل ...

- « انتظر ! »

بهذه السهولة ؟

نظرت إلى الفتى فى هدوء ، ثم قلت له وأنا أربت على كتفه :

- « لقد فعلت ما أردت منك أن تفعله .. والآن يمكنك الرحيل .. »

فقد كانت اللحظات التالية من الأشياء التى لا أرغب فى أن يعرفها كل سكان الجمهورية ..

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

* * *

لكنى لم أتوهم شيئًا ..

لقد انفتح الباب ورأيت (فوزى شفيق) يقف هناك .. كما هى العادة على ما يبدو كان يرتدى سروال منامة وفانلة داخلية ، وكان ذقنه غير حليق .. باختصار كان فى أسوأ حال .. بل أجسر على القول إنه مريض .. هذا الشحوب ليس ناجمًا عن الاكتئاب ..

لم يبتسم بسماجة .. لم يهز رأسه بثقة .. لم يطوح رأسه إلى الوراء ضاحكا ..

لقد كان مندهشًا بحق .. مذهولاً بحق ..

قلت له :

- « من الجلى أنك لم تتنبأ بقدومى .. »

- « لم يعد هذا واردًا ، ولكن ادخل ... »

ودخلت الشقة التى كانت فارغة تمامًا .. لا أثاث فيها من أى نوع اللهم إلا غرفة مغلقة فى طرف المكان ، ومن الواضح أنه جمع كل لوازم حياته هناك .. كانت هناك رائحة غير مريحة ناجمة عن نقص التهوية والإفراط فى التدخين .. شقة عزب بلا جدال ..

قال لى ، وهو يخفى بعض الخرق المتناثرة على الأرض :

ـ « معذرة .. أعتقد أن الغرفة ستكون مناسبة .. »

كدت أقول له إننى لن أطيل الزيارة ، لكن هذا كذب .. بالطبع سأطيلها ..

الغرفة المناسبة هى فراش غير مرتب ، واضح أنه يستعمل كمكتب وأريكة .. ومنضدة عليها أوراق وموقد صغير وبراد شاى .. وثمة جهاز كاسيت صغير . إنه عاشق أيضًا لأن هناك صورة قديمة لفتاة على المنضدة .. فتاة رقيقة والصورة ملونة ، لكنها قديمة جدًا كأنها من عشرينات القرن العشرين .. مستحيل .. لم يكن هناك تصوير ملون أو على الأقل لم يكن متوافرًا للعامة .. ربما كان مجرد حلم فى معامل شركة (أديسون) ..

جلست على الفراش ووضعت ساقًا على ساق ، وقلت له :

ـ « جئت أشكرك على أنك لم تتركنى أدفن حيًا .. صحيح أن إنقاذى تأخر لكنه حدث .. »

أخرج لفافة تبغ من علبة شبه فارغة ، دسها فى فمه وكور العلبة ليقذفها فى الركن .. ثم أشعل اللفافة من الموقد المشتعل .. ولم يعلق ..

قلت :

ـ « أضف لهذا أن نبوءتك أخطأت قليلاً .. كان من المفترض حسب كلامك أن يأتينى الخطر فى القرية لا خارجها .. ربما لو لم أصغ لنصيحتك لما حدث الحادث .. »

ـ « لو حرف امتناع لامتناع .. »

قالها فى شىء من السخرية وهو يعتصر لفافة التبغ بأسنانه ..

عدت أسأله :

ـ « هل هذا بيتك منذ زمن ؟ »

قال وهو ينفث الدخان كثيفًا :

ـ « الجماعة فوق يؤجرون هذه الشقة .. وقد استقررت فيها منذ ثلاثة أشهر .. إن اسمى هنا (ماهر) .. »

- «عرفت هذا .. لكن هل اسمك الحقيقى (فوزى) ؟»

قال فى لا مبالاة :

- «أسماء .. أسماء .. لماذا تعلق عليها هذه الأهمية ؟ أنا هو ، أنا بصوتى وشكلى وأفكارى والهالة الخاصة بى .. فلا يهم أى اسم أحمل ..»

قلت له فى هدوء :

- «على كل حال أنت تعرف أننى لم آت كى أعرف اسمك الحقيقى .. جئت أطلب تفسيرًا ..»

- «ولماذا تفترض أننى سأقدمه لك ؟»

- «هذا حقى البشرى .. أنت ملأت حياتى بالألغاز ، ومن واجبك أن تزيل بعض علامات الاستفهام كى أستطيع العودة إلى الحياة ..»

- «وأنت أفعمت حياتى تعقيدًا وأفشلت كل شىء .. أنت لن تفهم أبدًا ما خسرته أنا حين أنقذتك من الدفن حيًا .. كنت مضطرًا .. لم أتحمل أن يموت إنسان ببطء فى قبر وأنا أعرف التفاصيل ..»

قلت بنبرة المواساة :

- «لا يجب أن تلوم نفسك كثيرًا .. كلنا ذلك الرجل .. ثمة ضعف غريب فينا نحن البشر .. نحن لا نتحمل أن يموت إنسان برىء ونحن نعرف بموته .. من المنطقى أن تتركنى فى القبر وتلتهم بعض الشطائر وتنام ملء جفنيك ..»

ظل صامتًا برهة ، ثم قال لى وهو يضع أصابعه فى حمالتى فانلته بكبرياء :

- «د. (رفعت) .. لا أعتقد أننى سأفيدك كثيرًا .. أرجو أن تتركنى وشأنى ..»

وفجأة بدأ يهتز ..

أنا أعرف هؤلاء الذين يهتزون .. إنهم لا يوحون بالثقة كثيرًا كما تعلم .

ثم إنه سقط على الأرض .. عند قدمى ..

* * *

٥ ـ ميشيل دونوستراديم ..

ها هو ذا قد جاء ..

يدخل إلى البلاط فيتصلب الحراس، يرمقونه فى فضول .. تتوتر أناملهم على الرماح، والحقيقة أن مسلكهم كان أقرب إلى السخف، فالرجل لايثير أى رعب فى القلب .. هو رجل عجوز طيب كالذى تراه فى رسوم (ديزنى)، ولو أردنا الدقة لقلنا إنه يثير الشفقة .. خاصة وهو وسط هذا البلاط المهيب .

ليس بالرجل الذى تتجمد الدماء فى العروق لرؤيته كما يقولون ..

الملكة (كاترين دو مديتشى) ملكة فرنسا العظيمة جالسة على عرشها فى قمة زينتها، ويبدو أنها قررت أن يدب الهلع فى قلب هذا الضيف .. نوع من القهر النفسى لامبرر له هو .. نوع من استعراض العضلات ..

والحقيقة التى عرفها الجميع هى أن الموضوع يتعلق بامتحان ..

الملكة التى قرأت كثيرًا فى علم الغيب، وصادقت عرافين كثيرين، كانت تريد أن تمتحن العراف العجوز الواهن ..

يقترب الرجل وسط البروتوكول اللزج الذى تفننت فيه فرنسا .. من هنا نشأ فن (الروكوكو) المثير للاشمئزاز الذى نصر على أن نزخرف به صالونات بيوتنا، معتقدين أننا معجبون به، على غرار (فينوس) التى ترضع ابنها، والفتاة على الأرجوحة، والويل كل الويل للعريس الذى لايبتاع لعروسه صالونًا عليه هذه السخافات ..

يقترب الرجل، ثم يتوقف أمام الملكة .. فى أدب نعم لكن فى كبرياء كذلك .. الملوك يذهبون ويأتون أما هو فباق .. أو ـ على الأقل ـ يعرف ما لايعرفون ..

قالت الملكة بطريقتها المليئة بالتعالى وهى تعبث بحبات اللؤلؤ على صدرها :

ـ « اقترب أيها العراف .. أنت (ميشيل دو نوستراديم) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى يا مولاتى .. إنهم يطلقون علىّ (نوستراديموس) .. »

ـ « أنت من (بروفنس) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « (سالون بروفنس) يا مولاتى .. »

فرقعت إصبعين من يدها اليسرى ، فتقدم شاب منمق يضع مجموعة من الأوراق بين يديه .. فتحتها وراحت تقلبها ، ثم قالت :

ـ « أنت صاحب هذا الكتاب .. اسمه (قرون) .. اسم غريب .. ألا ترى هذا ؟ »

بدا أنه يغالب رغبته فى الانفجار أو أن يقول لها : (وأنتى مالك) .. لكنه اكتفى بأن قال :

ـ « للوهلة الأولى هو كذلك يا مولاتى .. »

نظرت حولها حتى وقعت عيناها على عراف ..

نعم عراف جدًا .. لو رأيته فى قاموس لعرفت معنى كلمة عراف .. هكذا يرسمونهم فى الرسوم الكاريكاتورية التى توضع جوار عمود (حظك اليوم) ..

قالت وهى تشير إلى الرجل :

ـ « هذا منجم بلاطى .. (جورك) .. أنت تعرفه طبعًا .. »

فى أدب هز (نوستراديموس) رأسه وقال :

ـ « نعم .. لى الشرف .. »

ـ « يقول (جورك) إن زوجى (هنرى الثانى) سيموت فى مبارزة .. وقد جئت بك ـ بعدما سمعت عنك ـ كى تؤكد أو تنفى هذه المعلومة .. »

بدا التردد على الرجل .. احمر وجهه قليلاً ثم قال :

ـ « فى نبوءاتى أن سيدتى ستعيش طويلاً .. ولسوف يتربع أولادها الثلاثة على العرش .. »



كانت كلماته بطيئة محيرة رهيبة تخرج كأبيات الشعر :
« الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير .. »

ـ « أنت لم تجب سؤالى .. »

عاد يقول فى أدب :

ـ « فى النبوءة رقم 55 سيقوم ابنك (تشارلز التاسع) بإبادة (الهجنوت) ولسوف يشنق رئيسهم .. »

بدا التململ الشديد عليها ومن جديد قالت بصوت جليدى :

ـ « أيها العراف .. أنت تتهرب من الإجابة عن سؤالى .. »

ساد البلاط صمت رهيب ، وفى النهاية تكلم الرجل .. كانت كلماته بطيئة محيرة رهيبة تخرج كأبيات الشعر :

« الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير ..

« فى مبارزة فردية ..

« سيخترق عينيه فى قفص ذهبى ..

« يصبح الجرحان واحداً ..

« ويموت ميتة شنيعة ! »

ثم رفع عينيه الناريتين نحو الملكة وقال ببطء :

ـ « هل أجبت سؤال مولاتى ؟ »

* * *

ويميل أحد الحراس على رفيقه يسأله همسًا :

ـ « من هذا ؟ »

ـ « ألا تعرفه يا أحمق ؟ إنه (نوستراديموس) الذى تتحدث فرنسا كلها عنه .. بل وأوروبا . »

نعرف نحن أن (نوستراديموس) ولد عام 1503 فى مقاطعة (بروفنس) ، ويقال إنه يهودى الأصل .. اعتنق أبواه المسيحية قبل ولادته بعامين ، فقط كى ينفذا مرسومًا بابويًا يخير اليهود بين المسيحية أو الرحيل ..

يقولون إن طفولته كانت غير عادية ، وكان له عقل جبار مولع باللغات بأنواعها .. العبرية طبعًا واللاتينية واليونانية .. إنه فى هذا يختلف عن كل العباقرة الذين يكونون فى طفولتهم أغبى من الذباب .. وبرغم أنه فى شبابه اختير لدراسة الطب ، فإن اهتمامه بالفلك كان عظيمًا ..

عام 1529 يظهر اسمه فى سجلات جامعة (مونبلييه) ، ويمنح درجة الدكتوراه فى الطب ، كما أنه عالج مرضى الطاعون فى مدينة (بورد) إبان انتشار الطاعون فيها ..

إلى هنا تنتهى حياته العادية ، وتبدأ حياته الأخرى التى هام فيها على وجهه ست سنوات كاملة بعدما تتلمذ على يدى منجم مشهور اسمه (سكاليجر) ..

ثمة نبوءة شهيرة عنه فى تلك الفترة ، حين رأى راعى أغنام يدعى (فليكس بيرتى) فى إيطاليا .. هنا دنا منه (نوستراديموس) وجثا على ركبتيه أمامه ، وقال :

ـ « إننى أخضع لقداسته !! »

فيما بعد حين جاء العام 1585 صار الراعى راهبًا ثم صار كاردينالاً .. ثم أصبح هو البابا (سكووتس) الخامس .. وكان هذا بعد أربعين عامًا من كلمات (نوستراديموس) ، وبعد موته هو نفسه ..

عام 1550 نشر (نوستراديموس) مجموعة نبوءاته

التى اشتهرت باسم (قرون) ، وهى تحوى نحو ألف نبوءة تشمل تاريخ العالم القادم حتى العام 3797 .. وقد كتبها بطريقة الرباعيات الشعرية ..

بعض هذه الرباعيات قد ضاع للأبد ، والبعض قيل إنه مدسوس عليه .. لكن الكتاب ولا شك بالغ الشهرة ، وقد ساعدت لغته الغامضة الممزوجة بالعبرية واللاتينية على أن تجعله كالثوب الفضفاض الصالح لكل حدث .. لا أريد أن أتدخل فى الأحداث ، لكنى لو نشرت اليوم نبوءة باسمى تقول :

ـ « غدًا تسيل الدماء فى بلاد النهر الأعظم ، بينما الحاكم الكبير يرى سقوط مملكته .. »

فمن يستطيع أن يكذبنى ؟ ستكون هذه النبوءة صالحة لصعود وسقوط (بونابرت) و(هتلر) وربما (نيكسون) فى حرب فيتنام .. وأية بلدة فى العالم ليس بها نهر أعظم ؟ بل إننى أضمن لك أنها صالحة للقرون القادمة ما لم تقم الساعة قبلها طبعًا !

دعونا نعد لقصتنا كى نعرف ما حدث للملكة ..

* * *

إن ما تمتاز به القصص على الحياة هى أنها تظهر لك الخيط الخفى الذى يربط بين الوقائع ، والذى لا تراه أنت فى خضم الأحداث ..

لقد مرت أعوام ونسيت الملكة ما قاله عرافها ..

لِمَ لا واليوم يوم زفاف ابنة زوجها ؟

البلاط كله فى أبهى صورة ، والأعياد والاحتفالات تعم الشوارع ، بينما البسطاء الذين لا ناقة لهم ولا جمل وجدوا أنفسهم فرحين ـ بلا سبب يعنيهم إلا أن الملك مسرور ـ فراحوا يرقصون طربًا ..

فى البلاط تؤدى الرقصات الرشيقة ، مع مزيد ثم مزيد من التحذلق فى البروتوكول والترف .. وهو شىء كما قلنا يميز البلاط الفرنسى عن سواه ..

ثم يخرج الجميع إلى حلبة المصارعة وهى الطقس الأهم فى الأعياد هنا ..

الملك (هنرى الثانى) يضع خوذته الذهبية الفاخرة على رأسه .. وينزل إلى الحلبة مهيبًا رائعًا .. هو ملك ابن ملك .. هو قوى ابن قوى .. هو متألق ابن متألق ..

والآن يخرج للقتاله نبيل هو الكونت (دى مونتجمرى) الشاب الوسيم الذى يحاول أن يبدو فارسًا بالإضافة لوسامته .. سيكون هناك الكثير من اللعب بالرماح ، فهذا يلهب مشاعر المشاهدين ، ولسوف ينتصر الملك على سبيل المجاملة طبعًا لأن أحدًا لن يجرؤ على هزيمة ملك ..

هل نسيت أيتها الملكة ما قاله (نوستراديموس) منذ أعوام ؟ بالفعل نسيت وهذه - كما قلنا - من النقاط القاسية فى الحياة .. يسهل عليك أن ترى الخطر الداهم وأنت تقرأ هذه الأحداث بعد سطور من نبوءة العراف ، لكن فى الواقع لاتبدو الأمور بهذا الوضوح ..

وبسرعة حدثت المأساة ..

لقد اندفع الكونت الشاب المتحمس ...

«الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير ..

«فى مبارزة فردية .. »

... والرمح فى يده ، ولم يدر كيف انغرس الرمح فى الخوذة الذهبية لمليكه ..

«سيخترق عينيه فى قفص ذهبى ..

«يصبح الجرحان واحدًا .. »

... وعلى الفور هوى الملك من فوق فرسه المطهم .. لقد تهتك مخه بعدما اخترق الرمح تجويف عينه ..

«ويموت ميتة شنيعة ! »

... فقط عندها تذكرت الملكة النبوءة وهبت واقفة .. أطلقت صرخة عاتية .. بعدها ساد الصمت ...

* * *

نبوءات كثيرة نجحت لـ (نوستراديموس) ، ونبوءات كثيرة خابت لعل أشهرها ما قاله :

«سيهبط من السماء ملك الرعب العظيم فى الشهر السابع من العام 1999 .. وسيحكم المريخ كوكب الحرب لصاحب الحق .. »

صدرت كتب كثيرة تتوقع إذن أن العالم سينتهى - أو على الأقل سيدمر أكثره - فى شهر يوليو عام 1999 .. ولما كنا جميعًا هنا والحمد لله ، فإننا نجرؤ على الشك فى صدق هذه النبوءة ، والكلام مطاط على كل حال .. فكلما ثبت خطأ نبوءة ، قيل إنها مدسوسة على الرجل ..

على كل حال توفى الرجل عام 1566 ، بعد ما تنبأ بكل شىء .. ربما بالذبابة التى تحوم حولك الآن لدى قراءتك هذه الكلمات .. يقول تلميذه والملخص الدائم له (شافينى) إنه استودعه إلى الغد ، لكن العراف قال له :

- « سأكون ميتًا فى الغد .. »

ولم يكذب الرجل خبرًا ، ربما ليثبت أنه صادق حتى النفس الأخير ..

لكن ما دوره فى هذه القصة ؟

يبدو أننى صرت عجوزًا مخرفًا بالفعل ..

* * *

٦ - فوزى شفيق ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

* * *

قالت لى الممرضة إنه أفاق ..

كنت أعرف هذا على كل حال حين لمحت ساقه تنثنى تحت الملاءة .. وحين سمعته يئن ..

وجاء د. (رفعت) زميلى المخضرم ، ليهمس فى أذنى :

- « كل التحاليل تؤكد أنه مريض جدًا ، لكن بأى شىء ؟ »

مططت شفتى السفلى فى غباء .. لا أعرف إنسانًا انخفضت خلايا دمه البيضاء إلى هذا الحد ، وارتفعت حرارته وسرعة الترسيب فى دمه .. بالإضافة إلى كل تلك العقد اللمفاوية تحت إبطيه ، وفى خن فخذه .. إن التشخيص المبدئى يوحى بأنها أنيميا فشل النخاع .. ولا يبعد أن يكون سرطان الدم هو السبب ..

قلت لـ (رأفت) وأنا أدس المسماع فى أذنى :

ـ « سنرتب لأخذ خزعة من العقد اللمفاوية ، وربما فحصًا لنخاع العظام .. لأرى الأمر على ضوء آخر ، فلا يوجد ضوء فى نهاية النفق .. »

ودنوت من الجسد النائم ، ووضعت المسماع على صدره الذى كان يعلن بلا كلمات عن الالتهاب الرئوى ..

فتح عينيه ، وكان ذكيًا من الطراز الذى لا يسأل أين أنا .. أنتم تعرفون أن البشر نوعان : نوع يسأل أين أنا ونوع يستنتج على الفور ..

قال لى همسًا (وهو ما سمعته كأنما هو من مكبر صوت) :

ـ « يجب أن أرحل .. قل لهم أن يتركونى وشأنى .. »

قلت وأنا أمرر المسماع :

ـ « صه لو سمحت .. شكرًا .. كنت أتمنى أن ... شهيق ! زفير ! كنت أتمنى أن أفعل لكنك مريض للغاية يا بنى .. »

ـ « ليس هذا بجديد .. وليس بوسعكم عمل شىء .. »

ـ « شهيق ! زفير ! نحن لم نعرف أصلاً ما هذا الذى لا نستطيع عمل شىء بصدده .. »

ـ « لن تعرفوا .. إن ثلاثين عامًا تفصلكم عن ... »

ثم انفجر فى السعال .. ومن بين دموعه همس :

ـ « كح .. كح .. لا تكن أحمق .. إن مرضى لشديد العدوى .. بل إننى لقنبلة على قدمين ، كح .. كح .. وإننى لأسائل نفسى عما إذا كنتم قد هلكتم جميعًا ! »

ارتجف رعبًا . إنه يعرف ما لا نعرف ..

عدت أسأله :

ـ « هل لمرضك هذا اسم ؟ »

ـ « إنه مرض (سمولنسك) .. »

على قدر علمى لا يوجد مرض يحمل هذا الاسم فى أى مرجع طبى .. أنا لست (أبقراط) لكنى على الأقل سأذكر الاسم لو صادفته .. لكنى عدت أسأله :

ـ « شهيق ! زفير ! هل ينتقل بالتنفس ؟ »

ـ « على قدر علمى ينتقل بنقل الدماء الملوثة .. لكنى لست طبيبًا .. »

ـ « لست طبيبًا ؟ يبدو أننى نسيت هذا .. إذن أدعوك لأن تخرس قليلاً .. »

انتهيت من الفحص فغادرته ، وأنا أفكر فى ملابسات ما حدث .. لماذا الآن ؟ كان فى أتم صحة من قبل .. بل كان غير قابل للهزيمة ..

وفى غرفتى بحثت عن مرجع (إيسلباشر) الطبى الرهيب الذى يصفه الطلاب بالتابوت ، وأصفه أنا بالكومودينو .. بحثت حتى كلت عيناى عن مرض (سمولنسك) فلم أجده .. طبعًا لم يكن هذا عصر الإنترنت وما كنت لأحسن استعمالها على كل حال ..

كالعادة يواصل الأخ (فوزى شفيق) إثارة حيرتى وبعثرة علامات الاستفهام كى أتعثر فيها كلما مشيت فى الظلام ..

* * *

قابلت (غيداء) للمرة الأولى عصر ذلك اليوم ..

كنت فى دارى أحاول جاهدًا أن أنتزع من قطعة اللحم المتجمدة ما يكفى لغدائى .. أنتم تعرفون أننى أنسى دومًا أن أخرج اللحم من الفريزر ليذوب ، وهكذا أجد نفسى وقت الغداء مهددًا بأن أموت جوعًا ، أو أحاول الحصول على أى شىء كأننى كلب (هسكى) وجد بقايا (ماموث) فى ثلاجات سيبريا العملاقة ..

دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه متوقعًا أن أرى ....

يبدو أن هناك قانونًا يحتم على من تدعى (غيداء) أن تكون جميلة كأحلام الأطفال .. وقد كانت كذلك .. لكن أهم ما لفت نظرى فى وجهها هو حساسيته الشديدة .. مرهفة تكاد ترى العروق الزرق تحت بشرة وجهها شبه الشفافة .. ثمة شىء مألوف فى وجهها يذكرك بوجه معين ، بالإضافة إلى كل النضارة التى راحت إلى الأبد .. يخيل إلىّ أننى فى زمن ما ـ لا أعرف متى ـ كنت نضرًا كزهرة ، ثم لم أعد .. وكانت هى قادمة من تلك الحقبة ..

شعرت بنفس الارتباك الذى يحس به كلب (الهكسى) حين تضبطه وفى فمه قطعة من لحم (الماموث) .. يد فيها سكين ويد ملوثة بالدم .. و ...

ـ « عدم المؤاخذة .. أنا ... »

قالت باسمة :

ـ « لا عليك .. لقد جئت من دون موعد .. أنا آسفة .. »

بالطبع لم أدعها إلى الدخول ، ولم يبد أنها تتوقع منى ذلك .. فقط قالت إنها (غيداء) وإنها جارتنا .. ليس فى هذه البناية ، وإنها تعرف أننى خبير بأمراض الدم ، وقد مرت علىّ من فترة لكنى لم أكن موجودًا ..

ـ « طبعًا .. كنت فى القبر .. أعنى .. أعنى أننى كنت مشغولاً .. »

وبدت لى فكرة أن أدفن دون موت سوقية إلى حد كبير .. بل مخجلة كأنها نكتة بذيئة ..

قالت لى فى تهذيب :

ـ « أنا (غيداء فهيم) .. كنت قد أردت أن أطلب رأيك بصدد أعراض تتكرر وتخيفنى . أعرف أنه لا عيادة لك ، ولم أجد طريقة أخرى لأخذ رأيك إلا أن أدق بابك .. لم أجدك وأخبرنى جارك الـ ... المهذب أنك لست بالدار من فترة ، هكذا قصدت أحد الأطباء .. والحمد لله أشعر بأننى أفضل .. »

ـ « حمدًا لله .. لكن ما دورى ما دمت شفيت ؟ »

ـ « أردت الاستيثاق من أن المشكلة انتهت فعلاً .. »

بدا لى غريبًا أن أبدى رأيى الطبى وأنا أرتدى المنامة وأحمل سكينًا فى يدى .. لكن لم يكن أمامى مفر ..

القصة أنها قصدت دارى دون أن يعرف أحد من أهلها ، لأنها بدأت تخاف تلك الأعراض التى تشعر بها .. كانت حالتها النفسية فى غاية السوء حتى طلبتنى فلم تجدنى .. كانت تعانى نزفًا متكررًا وبقعًا حمراء فى الجلد .. ولسبب لا يعلمه إلا الله قررت أنها مصابة بالسرطان .. كل الفتيات يحسبن أنهن مصابات بالسرطان ، وإن كن لا يعرفن عنه شيئًا .. يتخيلنه كأخطبوط عملاق جاثم على أنفاسهن ، كأنه (كتولو) أو أى وحش من وحوش (لافكرافت) البحرية إياها .. ولم ترد أن تخبر أهلها ..

أصغيت إليها بعناية .. كانت القصة معروفة لكل طبيب ولا تستدعى كل هذا القلق .. لكن الطبيب الذى قصدته يومها لم يرحمها .. أصابه الهلع أكثر منها ، وأمر بأن تدخل المستشفى ونقل لها وحدتين من الدم ، ثم أخبرها فى اليوم التالى أنه لا داعى للقلق ..

- « وهو رأيى بالضبط .. لا داعى للقلق .. ولو شئت المزيد من التأكد فلا بأس ببعض التحاليل .. ولكن ما زلت أجد أن ظروف هذه الاستشارة غريبة نوعًا .. لو زرتنى فى المستشفى غدًا فسوف أقوم باللازم .. »

عادت تسألنى فى إلحاح :

- « أى أنك مصر على أنه لا داعى للقلق .. »

- « طبعًا .. أظن أننى قلت هذا .. »

- « ولم يكن من داع لنقل الدم ؟ »

- « لا أدرى .. لم أرك ساعتها كى أحكم على الموقف .. لكن .. أعتقد أنه لم يكن من داع .. »

بدا عليها البشر .. أشرق وجهها كأنما أنقذتها من سيف الجلاد ، وهزت رأسها فى رضا واعتذرت عن إزعاجى بهذا الشكل ، ثم راحت تثب درجات السلم أربعًا فأربعًا ..

ووقفت أنا كالأبله على الباب أتساءل : من أين جاءت هذه الحورية ولأين تذهب ؟



ووقفت أنا كالأبله على الباب : أتساءل :
من أين جاءت هذه الحورية ولأين تذهب ؟

ثم السؤال الأخطر :

ـ « ترى هل ذاب اللحم بما يكفى كى .... ؟ »

* * *

عند المساء اتصل بى أحدهم من المستشفى ..
لم يمت (فوزى شفيق) كما توقعتم لكنه فر ..
نعم .. فر من المستشفى ، ولا يعرف أحد أين هو ...

* * *

٧ ـ غيداء فهيم ..

فيما بعد عرفت بالجزء التالى ..

لو كانت لنا عيون تخترق الجدران وتمسح البلاد من عل لرأينا مشهدًا غريبًا بعض الشىء ..

سأعرف يومًا ما أن كازينو (العصرية) هو أحد الكازينوهات الصغيرة المطلة على النيل ، التى يمكنك أن ترى برج القاهرة فى خلفيتها ، والتى تشبه المقاهى المتناثرة على الطريق الزراعى .. ليس فيه رقى ولاجمال ، لكنه كازينو إذا كان الكازينو هو المكان الذى يحوى مناضد متآكلة وبه سقاة ويمكن فيه شرب عصير الليمون الردىء الساخن ..

هذان رأسان متقاربان .. يمكنك فى ضوء الشمس الغاربة أن ترى أن أحدهما رجل والآخر امرأة .. يمكنك أن تحسبهما عاشقين لو استعدت تراث السينما المصرية العتيد ..

لكن لو دنوت أكثر لسمعت محادثة رهيبة أقرب إلى محادثات رجلى أعمال يناقشان الخطة الزمنية لمشروع جديد ، أو رجلى عصابة يخططان لجريمة ، أو أى عمل مريب مماثل ..

أما الفتى فهو (فوزى شفيق) .. ظننت هذا واضحًا .. صحيح أن الشمس تتوارى ، لكن من يملك هذا الشعر الثائر الغريب سواه ؟

الفتاة طويلة العنق من الطراز الذى لابد أن يكون اسمه (غيداء) .. ظننت هذا مفهومًا كذلك ..

هذان الاثنان .. ما العلاقة بينهما ؟ كلاهما ظهر فى حياتى مؤخرًا ، ولم أدر قط أن هناك علاقة ما .. فلو رأيت هذا المشهد وقتها لارتجفت هلعًا وتوجسًا ..

ماذا يقولان ؟

الفتاة تبكى .. هذا واضح .. يمكن أن ترى انعكاس الشمس الباردة على خديها ، والفتى مرهق تمامًا يحمل رأسه على كتفيه فى صعوبة ..

يقول لها أغرب ما يمكن سماعه :

ـ « الآن يحدث التصادم .. »

وينظر إلى ساعته فى قلق ...

تتوتر الفتاة وتنتظر بدورها والدموع متجمدة فى عينيها ..

بعد ثوان يدوى صوت الفرملة الطويلة القادمة من مكان ما من طريق (الكورنيش) ، وينتهى بصوت المعدن المتحطم مما يدل على أنها كانت فرملة متأخرة بعض الشىء ..

ترتجف الفتاة وتشهق ثم ترشف جرعة من كوب الليمون المغلى أمامها كى تتماسك ..

ـ « الساقى الأسمر سيتعثر الآن .. سيسكب كل شىء على الأرض .. »

بعد دقائق يتعثر ساق أسمر .. يسكب كل شىء على ثياب الرجل البدين الجالس وزوجته ..

برغمها تنفجر ضحكًا ، ثم تعود للاكتئاب والذهول شاعرة بالذنب ، برغم أن المشهد مضحك بالتأكيد كما قال (شابلن) .. سقوط المشروبات يكون مضحكًا فقط لو سقطت على رجل بدين متغطرس ، لأن الناس تعشق أن ترى المتغطرسين يفقدون كرامتهم ..

قالت له :

ـ « أنت على حق .. دومًا على حق . »

فى أدب ورفق قال ويده ترتجف فيحاول أن يمسكها بيده الأخرى :

ـ « ليس الأمر استعراض عضلات ، ولكنى أردت أن أبين لك دقة ما أعرفه .. »

ـ « والحل ؟ »

ـ « لا يوجد حل إلا ما قلته لك .. يجب أن أنتزع منك الوعد حالاً .. »

فكرت قليلاً وهى ترشف المزيد من الليمون المغلى .. ثم قالت :

ـ « أنت تعرف أننى لن أستطيع أن أعطى ردًا فى الوقت الحالى .. لابد لى من وقت للتفكير .. »

ـ « أفهم .. هذه أمور لا نعرفها كل يوم .. »

ـ « لكنك لست غاضبًا منى ؟ »

ابتسم فى رقة واهنة :

ـ « كيف لى أن أغضب منك ؟ »

ثم نظر إلى ساعته وقال وهو يضع بضع أوراق العملة تحت الكوب :

ـ « لقد تأخرنا .. فلنعد قبل أن يقلق أهلك عليك يا أماه ! »

* * *

ـ « لا توجد أية مسببات للمرض فى دمه .. »

عبر الهاتف قالها لى د. (منصور) المختص بالميكروبات ، والذى طلبت منه أن يبحث بنفسه كى أستبعد أخطاء المختبرات المعروفة ..

قلت له كى أثير أعصابه :

ـ « لم تجدوا البكتريا المسببة لمرض (سمولتسك) ؟ »

فى ضيق قال :

ـ « ما هذه ؟ »

ـ « البكتريا المسببة لمرض (سمولتسك) هى التى تسبب مرض (سمولتسك) . هذه أشياء معروفة يا (منصور) .. »

قال ما معناه إنه لا وقت لديه لهذا الهراء .. ثم عرض علىّ أن أتصل به فى أى وقت أريد ، فوضعت السماعة ورحت أتأمل الجهاز الأسود البراق فى شرود ..

لقد اختفى (فوزى شفيق) تمامًا ، ولم أجده فى داره بعد زيارته مرتين هناك .. ولأسباب ما لم يعد يتحفنى بنبوءاته التى توتر حياتى كلها ..

يبدو أن على الحياة أن تعاود دورتها ، وأن علىَّ أن أنسى هذه القصة تمامًا ..

* * *

فى هذا الوقت تقريبًا نزعت (غيداء) خاتم الخطبة من يدها ، ووضعته على المنضدة فى صالون دارها ..

نظر المهندس (هاشم) إلى الخاتم للحظة ثم نظر لوجهها الجميل .. بالطبع لا يوجد ما يوحى بالقسوة أو التوحش أو الغضب .. لو صدق نفسه لقال إن تعبير وجهها يوحى بالحزن ..

هل هو يحلم أم أن هذه دمعة تترقرق فى عينيها ؟

سألها وهو يفرك يديه غير عالم ما يفعله بهما :

ـ « هل هذا قرارك الأخير ؟ »

هزت رأسها أن نعم .

ـ « ودون إبداء أسباب ؟ »

هزت رأسها أن نعم ..

قال فى ضيق :

ـ « أعتقد أن السبب معروف .. أنا لم أتغير وكذا أنت .. من الجلى أن هناك آخر .. »

قالت بصوت مبحوح وهى تزدرد دموعها :

ـ « لن أرد على أية أسئلة .. لكن لا يوجد آخر لو كنت مهتمًا بهذه النقطة .. »

ثم أضافت كأنما وجدت أن هذا واجبها :

ـ « لا أعتقد أننى سأتزوج أبدًا .. »

كان كل هذا غادرًا .. لقد انتهى الأمر بالنسبة له من زمن ، وصار يعتبرها قد صارت له .. ذهبا معًا إلى حفل (عبد الحليم حافظ) فى عيد الربيع ، وارتجفا معًا وهما يسمعان (الموج الأزرق فى عينيك) ، وعرفا أنهما لن يفترقا أبدًا .. كانا (أنا) .. الآن المطلوب أن يتحول هذا (الأنا) إلى (أنا وأنت) توطئة لأن يتحول إلى (هو وهى) .. وهى جراحة لا يعرف كيف سيجتازها ويظل حيًا ..

والسبب ؟ الله وحده يعرف السبب .. ربما لاتعرفه (غيداء) هى الأخرى .. مستنقع النفس الأنثوية الغامض المتشابك وهو قد غرق فيه حتى الساقين ..

قال لها وهو يخرج التذكرة من جيبه :

ـ « لقد حجزت تذكرة الطائرة .. ها هى ذى .. يجب أن أكون فى (كييف) بعد يومين .. لكنى كنت آمل أن تعطينى ذكرى أفضل وأنا فى الغربة . »

هزت رأسها وقالت وهى ترفع رأسها فى شمم :

ـ « لم يعد لهذا الكلام جدوى .. نحن الآن شخصان لاتربطهما علاقة يا باشمهندس .. »

حقًا نعم .. والأسوأ هو أن الموقف مبتذل إلى حد لايصدق .. ليس فراق خطيبين بالشىء الذى تهتز له الأرض أو تفور البراكين .. مجرد شىء يحدث كل يوم ، لكنه لايصدق أنه يحدث له هو بالذات ..

نهض ولم يتكلم .. لم يطلب أن يودع أهل الدار ، فهم يعرفون قرارها من دون شك ..

خرج من الشقة ، وهو يعرف أن غربته ستكون قاسية جدًا هذه المرة ..

وفى الشارع ظل يردد كالبلهاء :

ـ « لكنا سمعنا (عبد الحليم حافظ) معًا .. فكيف حدث هذا ؟ كيف ؟ »

* * *

فيما بعد عرفت أن هذا المشهد قد وقع بحذافيره ..

لقد دخل (فوزى شفيق) إلى المصرف ، وهو يعرج قليلاً .. كان من الواضح أنه مريض وأن حالته الصحية ليست رائعة .. لكن رواد المصرف استطاعوا أن يروا الشعر الثائر الطويل الهابط على كتفيه .. وأن يدركوا أن حالته المالية أسوأ إلى حد ما ..

اتجه إلى موظف بيع الشهادات ، وانتظر فى أدب حتى فرغ الرجل مما كان يقوم به ، ثم قال له :

ـ « أريد بعض الشهادات ذات الجوائز .. ليكن فى حدود خمسين جنيهًا .. »

أخرج الرجل الدفتر ، وبدأ يدون .. لكن الفتى استوقفه وقال :

ـ « أريد أرقامًا معينة .. هل يمكن البحث عما إذا كان بعضها متاحًا ؟ »

مط الموظف شفته السفلى فى ازدراء .. وقال :

ـ « لا أحد يعرف أى رقم سيفوز يا بنى .. هذه الأمور عشوائية تمامًا .. »

قال الفتى بابتسامة مداهنة :

ـ « ثمة أرقام أتفاءل بها أكثر من سواها .. ولكن .. لو كان ما أطلبه عسيرًا ... »

هز الموظف رأسه فى ملل ، ثم بدا أنه يفهم هذه الأمور ، وقال وهو يخط بعض الأرقام فى ورقة أمامه :

ـ « ليكن .. أعرف أن التفاؤل والتشاؤم أمور لا تخضع للمنطق .. هذه هى الأرقام المتاحة حاليًا .. تبدأ من هذا الرقم وتنتهى بشكل متسلسل لدى هذا .. فاختر ما يثير خيالك منها .. »

مال الفتى على الشباك يفحص الأرقام ، ثم مد يده فى جيبه وأخرج ورقة راح يراجع ما فيها .. ورقة بدت للموظف كأنها مقتطعة من جريدة قديمة مصفرة ، وإذ رأى نظرة الموظف المندهشة قال له :

ـ « معذرة .. هناك من يقترح على الأرقام وأنا .. أنا أصدقه .. »

كان الأمر مريبًا بالنسبة للموظف .. مريبًا أكثر من اللازم ، لكنه كان يعرف حقيقتين : الحقيقة الأولى هى أنه لا يوجد بشرى يمكنه التنبؤ بأرقام الشهادات التى ستفوز فى السحب العشوائى وهى عملية نظيفة تمامًا .. الحقيقة الثانية هى أن هذا ليس من شأنه .. عمله أن يبيع الشهادات لا أن يجرى تحقيقًا صحفيًا مع من يشتريها ..

فى النهاية ناوله الفتى قصاصة عليها رقمان ..

تمت عملية الشراء بسرعة ، وبالطبع ما كان الموظف ليضيع وقته فى مطالعة الصحف ليعرف أية

أرقام فازت .. إنه لا يملك إلا شهادة واحدة لا تفوز أبدًا .. ولطالما ساءل نفسه إن لم يكن من الحكمة أن يبيعها لينتفع بمالها ..

ثمة ملحوظة أخرى لم يهتم لها ..

لماذا خيل إليه فى البدء أن عينى الفتى سوداوان ، ثم حين رفع رأسه ليناوله الشهادات خيل إليه أن العينين خضراوان ؟

إنها ألاعيب الظل هذه ..

* * *

فيما بعد أيضًا عرفت أن المشهد التالى حدث ..

هذا فتى يدخل أحد محال بيع الذهب فى وسط المدينة ..

يذكر البائع إن الفتى بدا له أقرب إلى البدانة له بشرة شاحبة كالحليب ، وله عينان خضراوان ثابتتان باردتان خمولان .. عينان جديرتان بأن توضعا فى هذا الوجه دون سواه ..

جلس وابتسم .. وانتظر حتى فرغ البائع من آخر صفقاته ، وراحت عيناه تتفحصان نوافذ العرض المفعمة بالحلى الذهبية .. ولما رأى نظرة البائع المتسائلة قال :

ـ « أنا بحاجة إلى شراء ذهب .. »

ـ « هل من شىء معين ؟ خاتم ؟ سلسلة ؟ »

ـ « أى شىء .. فقط أريد كمية من الذهب .. »

هنا تعالى صوت صاحب المحل من مكان ما وكان يتابع كل ما يدور بشكل ما .. وكل أصحاب محلات الذهب يتابعون ما يدور بشكل ما :

ـ « لا تتوقع ارتفاع أسعار الذهب يا بنى .. لو كان هذا ما تفكر فيه فليس هذا بالوقت المناسب .. إن أسعار الذهب فى انخفاض مستمر .. ويعلم الله أننا نقاسى الأمرين من هذا .. إن السوق (مضروب) وكل ما يحدث هو أننا ... »

طبعًا كان يحاول شراء ثقة الفتى بهذه الاعترافات الأريحية ، لكن الفتى كان يتصرف كأنما يتحرك بتوجيه ما ..

أخرج رزمة لا بأس بها من الأوراق المالية ، وكأنما يشترى بعض البطاطس من أقرب بائعة خضر ، أصدر أمره للبائع :

- « زن لى بهذا المبلغ ! »

لم تكن هذه هى الطريقة المثلى لشراء الذهب ، بل إنه لم يسأل حتى عن سعر الجرام .. فإما أنه خبير بالأسواق وإما أنه أحمق وإما أنه سرق هذا المال ..

على كل حال لم يكن هناك ما يؤخذ على الفتى بشكل مباشر ، وتمت الصفقة بسرعة ككل صفقات الحمقى ، وحين غادر المحل كان يحمل كيسًا ورقيًا كبيرًا (لأن أكياس البلاستيك السوداء إياها لم تكن موجودة وقتها) ..

على كل حال لم يستطع الرجل نسيان هذا الموقف ولا هذا الفتى بسهولة ، لأن أسعار الذهب ارتفعت بشكل مرعب بعد ثلاثة أيام ..

وهكذا استبعد الرجل الاحتمالين الثانى والثالث ومال بشدة إلى الأول ..

الفتى كان يعرف ما يفعله .

* * *

٨ - براندانو ..

هذه (روما) التى عرفناها فى الفصل الأول .. لاشك فى هذا ..

لكن لشد ما تغيرت .. لم يعد ذلك الطابع الرومانى المهيب بضخامته وأناقته هو السائد ، لكنه طابع آخر استلهم من المسيحية ويصعب وصفه ما لم تره ، لكننا نطلق عليه (الطابع البيزنطى) ..

ما زالت (روما) مدينة قوية ، وما زالت تؤمها أجناس الأرض .. ولكن لم يعد القيصر هو الحاكم ، ولكن البابا .. فى تلك الحقبة كانت للكنيسة السلطة واليد فى كل شىء ، وكان البابا يقود جيوشًا ! نعم .. يبدو هذا غريبًا .. لكنه الحقيقة .. نحن نذكر كيف كان البابا يترك (مايكل أنجلو) معلقًا على السقالات تحت سقف كنيسة (سستين) ، كى (يخطف رجله) ويحارب هذا الجيش أو ذاك ، أو يهزم هؤلاء المتمردين

أو هؤلاء .. ثم يعود إلى (مايكل أنجلو) ليسأله فى عصبية : ألم تنته بعد ؟

اليوم - طبعًا - صار البابا سلطة روحية فقط ..

العام 1517 .. الناس تبدأ يومها فى روما العظيمة ، والشوارع بدأت تزدحم بالأطفال اللاهين والنساء المتأنقات اللاتى تذكرك ثيابهن بثياب المحجبات اليوم .. وبائعى الشليك يجلسون صفًا جوار النافورة ..

عندها ظهر ذلك الراهب ..

كان حافى القدمين ، وهى عادة لا تعرفها روما إلا حين يكون حافى القدمين رجلاً جاء يطلب الصفح عن خطاياه .. فى هذه الحالة قد يحمل شمعة ثقيلة ويضع أنشوطة حبل من ليف حول عنقه ..

كان حافى القدمين يرتدى أخشن ثياب يمكن تصورها ، وفى يده عصا غليظة يضرب بها الأرض ضربًا مع كل خطوة ، وكان وجهه مختفيًا خلف غطاء ، لكنه كان يفوح برائحة الفقر ..

كان يصيح فى الشوارع :

ـ « الويل ! الويل ! »

راح الناس ينتبهون رويدًا ، وتوقف الأطفال عن لهوهم وراحوا يرقبون ما سيقول هذا الراهب غريب الأطوار :

ـ « الويل لهذه المدينة التى ستقع فريسة فى يد الأمم ! »

عم يتكلم هذا الرجل ؟ إن روما هى أكثر المدن استقرارًا على وجه الأرض ، ولم يجرؤ جيش على مهاجمتها منذ خمسة قرون ..

ـ « الويل ! الويل ! »

ودنت منه فتاة حسناء يبدو أنها تبيع التفاح كذلك ، وربتت على ساعده وهى تنظر حولها :

ـ « هلم يا أبت .. اهدأ قليلاً .. لا تدعن أحدًا يسمع ما تقول .. »

لكنه رفع عقيرته أكثر ، وواصل التهديد :

ـ « ويحكم يا حمقى ! لقد كثر الفساد ونخر فيكم ، ولتدفعن ثمن هذا غاليًا ! »

وراح الناس فى البداية يحاولون إسكات الرجل .. لكنهم عرفوا على الفور أنه ما من شىء يسكته إلا الديناميت الذى لم يخترعه الخواجة (الفرد نوبل) بعد للأسف ..

ثم بدءوا يتفرقون عنه وقد أدركوا أن القرب منه كارثة خاصة حين يسمعه الحراس ..

ـ « الويل لهذه المدينة التى ستقع فريسة فى يد الأمم ! »

وعلى طريقة رجال الأمن فى كل مكان وزمان ، جاء حارسان يحملان رمحين وفرقا الواقفين ، وهما يبتسمان بمعنى أن كل شىء تحت السيطرة ..

ثم وضع كل منهما يدًا تحت إبط الرجل واقتاداه بعيدًا ، وهو يردد بلا انقطاع :

ـ « سيأتونكم من وراء جبال الألب .. نعم .. فالويل لكم .. »

وقال أحد الرجال وهو يضرب كفًا بكف :

ـ «لقد انتهى أمره !»

* * *

لكن البابا (كليمنت الثامن) لم يكن رجلاً مؤذيًا أو قاسى القلب ..

لقد جلس على عرشه يصغى لكلام هذا الراهب ـ الذى عرف أن اسمه (براندانو) ـ ولم يمنع نفسه من الشعور بالاستمتاع لطرافة الموقف .. هذا الراهب ثائر حقيقى .. ثائر جدًا ، ويذكره ببعض قصص التوراة عن حصار بابل ..

فى النهاية لم يجد ما يقول .. فالرجل مصر على موقفه ومصر على أن كلماته نبوءة ..

قال للراهب وهو يتأمل عصا البابوية التى فى يده :

ـ «اسمع أيها الراهب .. أنا لن أوذيك .. لكنى لا أطيق أن تمشى فى شوارع مدينتى العظيمة تصرخ

بما من شأنه أن يبلبل أفكار الناس ويثير ذعرهم .. لهذا سأكتفى بطردك من روما .. »

وأشار إلى الحراس كى ينفذوا الأمر فورًا .. ثم توقف فجأة وقد تذكر شيئًا فصاح بالرجل :

ـ «لحظة .. لو أنك عدت إلى روما ثانية فلسوف نلقى بك فى نهر (التيبر) .. »

وكان الإلقاء فى الماء من وسائل العقاب المحببة فى ذلك العصر ..

بل إنهم كانوا يعاقبون الساحرات أو المتهمات بالسحر بطريقة عبقرية .. كانوا يقيدون يديها إلى قدميها ويلقون بها فى الماء ؛ فإن طفت كانت ساحرة حقًا ، وإن غرقت كانت بريئة مظلومة ! ولا تسلنى عن جدوى معرفة براءتها بعد ما تموت غرقًا ..

المهم أن الراهب نفى ..

لكنه كان فنانًا وكان فيلسوفًا .. باختصار كان من هؤلاء المجانين الذين لايتخلصون من أفكارهم بسهولة ..

ومن جديد عاد أهل روما يسمعون راهبًا ساخطًا يردد فى الشوارع :

ـ « ويحكم يا حمقى ! لقد كثر الفساد ونخر فيكم ، ولتدفعنّ ثمن هذا غاليًا ! »

ومن جديد حمله حارسان مبتسمان إلى البابا الذى راح ينظر له فى حيرة ..

كان يكره أن يسبب موت الرجل ، لكنه كان يمقت ـ بشكل أكثر ـ أن يهزأ به أحد ..

وهكذا تم تقييد الراهب من جديد ، وفى ذات صباح بهيج خرج الجميع ليشهدوا عملية رميه فى نهر (التيبر) ..

تضاربت الدوامات وبدأ سطح المياه يهدأ قليلاً ، ثم صاح صائح من حديدى البصر :

ـ « إنه ما زال طافيًا يا صاحب القداسة .. »

بالفعل كان الراهب يسبح كقطعة خشب فوق صفحة الماء ، مما أثار غيظ رجال الكنيسة ، ولم يعد من مناص من إخراجه .. فما إن بصق ما كان يملأ فمه من مياه حتى راح يصرخ :

ـ « سيأتونكم من وراء جبل الألب .. نعم .. فالويل لكم .. »

قال البابا لرجاله فى ملل وهو ينصرف :

ـ « ألقوا به فى السجن .. لا أريد أن أسمع عنه شيئًا .. »

وقدْ كان ...

* * *

فيما بعد تذكر سكان روما نبوءة هذا الراهب طويلاً ..

لقد كانت روما منيعة لا تمس ، ولم يهاجمها أحد قط حتى نسى الناس الحرب ..

وحين اجتاحتها عصابة القتلة ، ملوحين بسيوفهم ورماحهم ، راح الناس يركضون فى الشوارع ويصرخون ، بينما الحرائق تشتعل فى كل مكان ..

كان هؤلاء جيشًا من الجنود المرتزقة يرأسهم وغد هو (شارل دى بوربون) .. وكانوا يتمتعون بكل الصفات اللطيفة التى يتمتع بها السفاحون ، وربما ـ لو كان خيالنا جامحًا ـ وحشية أية فصيلة فى الجيش الإسرائيلى ، لكن رجال (دى بوربون) لم يبلغوا هذا الحد من السفالة طبعًا ..

تحولت المدينة الجميلة إلى خليط عجيب من المذبح والمقبرة والمحرقة والمستشفى والحانة .. وراح الرجال يبكون والنساء يصرخن والأطفال يموتون ..

وفيما بعد دخل المرتزقة السجن وأطلقوا سراح من فيه ، على أساس أن المساجين هم أعداء للبابا يمكن الاستفادة منهم ..

وكان من بين من أطلق سراحهم راهب عجوز مهدم أضناه السجن والجوع والتعذيب .. اسم هذا الراهب هو (براندانو) ..

لانعرف ـ أو لا أعرف أنا ـ ماحدث له بعدها ، لكن التاريخ يذكر جيدًا كيف اضطر البابا (كليمنت الثامن) إلى الاستسلام المهين .. ولابد أنه تذكر تلك النبوءة كثيرًا جدًا ..

ما دورنا فى هذه القصة ؟

قلت لكم كثيرًا إننى صرت عجوزًا مخرفًا لايعى ما يقول ..

* * *

٩ ـ فوزى شفيق (٢)

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

* * *

من جديد دق جرس الهاتف فى دارى .. هذا كما تعرفون الجرس الثانى فى أسبوع ، حتى بدأت أفكر فى تغيير رقم الهاتف ..

هرعت لأخرسه قبل أن يحطم أعصابى أكثر :

ـ « ماذا تريد ؟ »

ونظرت إلى الساعة .. إنها الثالثة صباحًا .. لابد أن يكون شيئًا أكثر أهمية من الحرب العالمية الثالثة ..

جاءنى الصوت الهادئ الرخو يقول كأنما يتثاءب :

ـ «دكتور (رفعت) .. يجب أن تهرع إلى المستشفى الآن .. »

قلت فى ضيق :

ـ «من يتكلم ؟»

ـ «أنا (فوزى شفيق) طبعًا .. »

ـ «آه .. معذرة .. لم أفهم أن هذا مزاح .. لكنى أتمنى أن تبحث عن شخص آخر تمازحه فى هذه الساعة .. شخص من طرازك .. »

عاد يصيح ليمنعنى من إغلاق الخط :

ـ «أقسم لك إننى هو .. تذكر الدفن حيًا والامتحانات ، والنصابة فى مكتب البريد ، وصديقك المحامى .. كيف أعرف كل هذا لو لم أكن هو ؟»

حقًا هذا عسير نوعًا .. قلت له فى حيرة :

ـ «لو كنت أنت (فوزى شفيق) فأنت قد تغيرت كثيرًا .. »

ـ «لنقل إنه المرض .. والآن عليك أن تنذرهم سريعًا فى المستشفى لأن حريقًا هائلاً سيشب بعد دقائق .. هناك مريض سيشعل موقدًا ، ولسوف تمسك النيران بالملاءة ثم تمتد .. أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور .. المريض يدعى (عباس التهامى) فى قسم الجراحة العامة .. »

قلت له باسمًا :

ـ «يبدو أنك استرددت قدراتك التنبؤية أخيرًا .. »

ـ «لاوقت للتلميحات الآن .. افعل كما قلت لك .. »

ثم وضع السماعة ..

نظرت للهاتف صامتًا بضع دقائق ، ثم مددت يدى إلى القرص وأدرت رقم المستشفى .. طلبت عاملاً ساهرًا

هنالك ، أو كان ساهرًا كما يدل صوته الناعس ، فقلت له :

- « اسمع يا (شبينى) .. يبدو أن هناك أحمق ما فى قسم الجراحة العامة .. إنه مريض يدعى (عباس التهامى) ، وهو موشك على إحراق المستشفى كلها .. أريد أن تذهب إلى هناك وتجده وتمنعه .. »

كان مندهشًا كما ينبغى أن يكون ، وقال لى :

- « ولكن من أين تتكلم يا دكتور ؟ »

- « من بيتى طبعًا .. »

- « وكيف تعرف إذن أن .... ؟ »

- « لأننى عبقرى .. والآن اذهب ولا تضيع الوقت .. حين تفرغ من هذا أرجو أن تتصل بى .. »

وجلست جوار الهاتف .. ثم نهضت لأعد لنفسى بعض القهوة التى تساعدنى على نوم هادئ كما تعرفون .. إذن ما زال (فوزى شفيق) حيًا ويعمل .. ولكن أين هو ؟ ولماذا تغير صوته إلى هذا الحد ؟

من جديد دق جرس الهاتف ، وكان هذا هو العامل .. طبعًا قال لى ما كنت أعرف أنه سيقوله ، وراح يطرى حكمتى وبعد نظرى .. كأنه - الأحمق - يعتقد أن كونى أستاذًا يفسر رؤيتى للأمور الغيبية ..

- « إن هى إلا دقيقة واحدة ، وكانت النار ستشتعل فى خمس من أسطوانات الأوكسجين على الباب .. وتلك الأسطوانات دائمًا غير محكمة الغلق .. الخلاصة أن الحريق أوشك أن يكون جهنميًا .. »

وضعت السماعة شاعرًا بالرضا عن نفسى .. قليلة هى الفرص التى تتاح للمرء كى ينقذ مستشفى كاملاً من الحريق قبل أن ينام .. والأجمل أن الأمر لم يكلفنى إلا بضع كلمات فى الهاتف .

وعدت أرشف ما تبقى من القهوة ..

طبعًا أنتم تعرفون أننى - عكس البشر جميعًا - أغيب فى النعاس بمجرد أن أرشف القهوة .. وهكذا وجدت أن الفراش هو الموضع الوحيد الذى يناسبنى الآن ..

* * *

فى السابعة صباحًا عاد الجرس يدق ..

نهضت غائم الذهن فاصطدمت أصابع قدمى المبتورة بالكومود ، ثم تعثرت بالملاءة فسقطت على الأرض .. أخيرًا وجدت طريقى إلى الهاتف ..

لو كان هذا الفتى يريد أن أتحول إلى سوبرمان المكلف بإنقاذ العالم من نبوءاته ، فهو مخطئ ..

ـ « آلو ؟ »

جاءنى صوته يقول فى وهن :

ـ « د. (رفعت) .. إننى أموت ! »

لدهشتى كان الصوت صوته ولاشك .. صوته القديم المألوف .. ما معنى هذا ؟ هل هناك صوت كالحرباء يتغير من لحظة لأخرى ؟

قلت له فى لامبالاة :

ـ « أنا أحسبك تموت من أسابيع يا بنى .. لكن من الواضح أنك لن تفعل أبدًا ، فاطمئن .. »

عاد يقول بذات الوهن :

ـ « أكرر لك إننى أموت .. ويجب أن تنقذنى .. ليس لى أحد سواك .. »

وضعت العوينات على أنفى كى أستعيد جلاء الصورة .. من الغريب أنى لا أستطيع التفكير إلا بعد ارتداء العوينات .. وقلت له :

ـ « حاولت إنقاذك من قبل ، وعجزت عن ذلك .. إن معلوماتنا عن مرض (سمولنسك) هذا ... »

ـ « بل تستطيع .. اليوم أنت تستطيع .. »

ثم عاد يقول فى إصرار :

ـ « عنوانى هو ... الخ الخ ... يجب أن تأتى حالاً .. »

وهكذا يمكنكم أن تفهموا لماذا تروننى أتعلق بهذه الحافلة ، وأحاول ألا يدفعنى ذلك الرجل الغليظ بكوعه فى وجهى .. لقد نسيت المواصلات العامة لفترة ، وعلىّ أن أدفع ثمن سنوات الرفاهية ـ بأن ألعب لعبة لم أتدرب عليها من زمن ـ يجب أن أشترى سيارة فى أقرب وقت .. يجب ..

وأخيرًا كنت عند العنوان ، وهو يختلف عن عنوانه القديم فى (حدائق الزيتون) .. البيت فى شارع هادئ راق ، ومن الواضح أن أسعار الشقق هنا ليست ملاليم ..

يبدو أن أحوال الفتى المالية صارت أفضل ..

كان الباب فى الطابق الرابع ومفتوحًا فقرعته مرتين أو ثلاثًا ، ثم توكلت على الله ودخلت لأن أحدًا لم يرد .. دخلت لتطالعنى صالة أنيقة ، وثمة مكتبة عملاقة تحتل جدارًا كاملاً منها ، وإن خلت من الكتب .. فقط كان فيها جهاز تلفزيون وجهاز كاسيت .. وكانت الإضاءة موزعة بشكل احترافى يوحى بأن مهندس ديكور بارعًا أشرف على تنسيق كل هذا ..

- «تعال يا دكتور (رفعت) .. »

وكان الصوت آتيًا من غرفة بالداخل .. غرفة نوم طبعًا .. لا أدرى لماذا أتعامل بهذه الثقة ، أنا الذى أشعر بالكمال كما يشعر بها أى قط .. ولا أدرى لماذا يتعامل هو الآخر بذات الثقة .. لكن لِمَ لا ؟ أليس عرافًا ؟ ألا يعرف يقينًا إن كنت سأقتله بغرض السرقة أم لا ؟

دخلت غرفة النوم ، فشممت رائحة الخشب المطلى حديثًا ، كأننى فى معرض أثاث ، وهو ما يدل على أنها غرفة جديدة تمامًا .. وكان الفراش مبعثرًا ، لكن الفتى على الأقل كان راقدًا فيه .. وأدركت أنه فى أسوأ حال ممكن برغم الإضاءة الخافتة المتسللة من الستائر ..

قال لى فى وهن :

- «تعال يا دكتور وانظر إلى ما تحولت إليه .. »

كانت هناك قروح قبيحة تملأ وجهه .. على قدر علمى لم أر هذا المشهد قط ، ولم أر مرضًا يلتهم لحم الوجه بهذه الصورة المخيفة .. حتى القرحة القارضة التى يعرفها الجراحون لا تحدث كل هذا التشويه ..

- «لا تنافقنى يا دكتور .. هذه هى المراحل الأخيرة لمرض (سمولنسك)»

قلت بصراحتى المحببة :

- «لن أنافقك .. أنت أسوأ حالة مرضية رأيتها فى حياتى .. والأدهى أننى لا أعرف ماذا تشكو منه بالضبط»



كانت هناك قروح قبيحة تملأ وجهه ..
على قدر علمي لم أر هذا المشهد قط ..

ونظرت إلى الغرفة من حولى .. طبعًا كانت على الكومود ذات الأدوية وكوب الماء وبعض القصاصات من الصحف ، وبعض القصاصات التى خلت من الكتابة كأنها أوراق صحف قديمة لم تطبع ، والصورة .. هذه أشياء يبدو أن القانون يحتم وجودها .. الصورة التى رأيتها فى غرفته القديمة من قبل ، والآن أراها هنا ..

لهذا شعرت بشىء مألوف فى وجه تلك الفتاة حين رأيتها على باب دارى .. كنت قد رأيت صورتها الفوتوغرافية من قبل لكننى لم أتذكر ذلك ..

ونظرت للفتى وسألته فى حيرة :

ـ « أنت تعرف (غيداء فهيم) ؟ »

* * *

١٠ـ غيداء فهيم (٢)

لم يهتم بالرد علىّ ..

فقط دخل فى أعنف حالة من الهستيريا الممزوجة بالغضب ، أو الغضب الممزوج بالحزن ، أو الحزن الممزوج بالألم ..

كان يصيح وهو يوشك على لطم خديه :

ـ « لقد تبدلت الأمور .. عدت أنا أنا .. والمرض عاد يفتك بى .. »

قلت محاولاً أن أهدئ روعه :

ـ « لو أنك حاولت أن تنام فلربما ... »

ـ « لقد خانتنى ! حنثت بعهدها وتخلت عنى .. كل شىء ينهار من جديد .. »

جلست جوار فراشه ووضعت ساقًا على ساق ورحت

أفكر وأنا أتأمله ، وأتسلى بلسع ساقى النحيلة بأستك الجورب .. القصة إذن مجرد انهيار أعصاب .. صدمة عاطفية قاسية من التى يتلذذ المرء باستعادتها وحكايتها لصبى الكواء والسباك ورجال الشرطة فى الشوارع ..

أم هى المرحلة العقلية الأخيرة السابقة للموت فى مرض (سمولنسك) هذا ؟ إن تخاريف الموشك على الموت بفعل التيفوس أو الطاعون لأمر معروف .. إنه الهياج الذى يميز من يموتون بعضة الكلاب المسعورة .. إنه اضطراب مريض الفشل الكبدى الذى يبدو لمن لا يعلم سخيفًا طفوليًا إلى حد لا يصدق ..

ولكن الفتى يعرف (غيداء) ، فما معنى هذا ؟ ثمة احتمال لا بأس به فى أن تكون هى صاحبة المقلب العاطفى الأخير .. ولكن هل هما يعبثان بى ؟ هل هذه خطة أخرى لإيقاع الأحمق المسن ؟

فى هذه اللحظة أمسك بثيابى كأنما يوشك على الغرق وصاح :

ـ « يجب أن تذهب إليها ! »

- «سأذهب .. ولكن لمن ؟»

- «(غيداء) ! أنت تعرفها ! هى جارتك !»

- «سأحاول .. ولكن لا تطلب منى أن أخبرها بأن تباريح الهوى أوشكت على قتلك كما كان يفعل شعراء الغزل القدامى ..»

صاح وعيناه تتوهجان حمرة :

- «قل لها أن تقطع علاقتها بـ (هاشم) فورًا .. يجب أن تفعل هذا ! قل لها إنى أموت ..»

من ناحية الموت أنا أوافقه على هذا .. لكننى برغم كل شىء أجد من الغريب أن ألعب دور (سنيد البطل) فى الأفلام العربية .. كل دورى هو أن أذهب للبطلة لأخبرها أن البطل يحبها حقًا ، وأنه يموت وعليها أن تنقذه حالًا ..

عدت أسأله فى ضيق :

- «ما هى علاقتك بـ (غيداء) هذه ؟»

صاح كأنما أنا أكبر معتوه رآه فى حياته :

- «هى أمى طبعًا يا أحمق ! ظننت هذا واضحًا !»

ابتلعت ريقى وسألته السؤال التالى :

- «ومن هو (هاشم) ؟»

استلقى فى الفراش وقال منهكًا :

- «هو أبى .. أبى الذى لا أريد أن يكون كذلك !!»

* * *

أشرق وجهها حين رأتنى وهتفت فى مرح :

- «كيف عرفت البيت بهذه الدقة ؟»

قلت فى كياسة :

- «إن بوابى هذا الشارع يصلحون للعمل فى الاستخبارات المركزية .. لابد أنهم يعرفون اسم زوج خالتى الذى لا أعرفه أنا ..»

كانت أمها تقف وراءها على مدخل الباب تنقل النظر بيننا فى شك .. أم مصرية تقليدية جدًا ، لابد أنها متضايقة لأننى انتزعتها من لف أوراق المحشو أو (تقوير) الكوسة .. تم التعارف بسرعة ، ولكنى

رفضت أن أدخل .. فقط قلت لها ـ وقد عجزت عن التخلص من الأم المتشككة ـ إننى أريد أن أخبرها بشىء خاص ..

ـ « لا توجد أسرار .. هلم تكلم أمام أمى .. »

ابتلعت ريقى .. أنا أعرف ما سيفضى إليه هذا الموقف ، والمشكلة هى أننى لا أستطيع الإفلات منه .. قلت فى كياسة :

ـ « هناك من يزعم أنه (فوزى شفيق) .. وهو ينصحك بالخلاص ممن يدعى (هاشم) لأنه أوشك على الموت .. أتكلم عن (فوزى) طبعًا .. لقد جن تقريبًا وهو مصر على أنك ... أمه .. لا أعرف كيف برغم أنه يكبرك بخمس سنوات على أقل تقدير .. و ... »

لكنها لم تبد استياء أو تحرك سبابتها جوار صدغها . فقط قالت باسمة :

ـ « تقصد (عادل) ؟ بالفعل هو مجنون .. هذا الفتى مجنون .. ولا أعتقد أننى مطالبة بالاستجابة لهذيانه .. كلما فكرت فى الأمر وجدت هذا أقرب إلى المنطق .. »

ـ « منذ متى تعرفينه ؟ »

ـ « منذ أسبوعين أو أقل .. وقد تبادلت معه نصف ساعة من الكلام .. »

نظرت إلى الأم فى حذر وقلت بصوت شبه هامس :

ـ « ومتى أعطيته صورتك إذن ؟ »

قالت الفتاة فى كبرياء الأنثى التى أهينت :

ـ « أنا لا أعطى صورتى لأحد .. خاصة أولئك الذين عرفتهم لمدة نصف ساعة .. »

حاولت فى غباء أن أجمع أطراف هذه اللغز لكنى فشلت .. قلت لها وأنا أتراجع بظهرى :

ـ « إذن أنت لا تنوين قطع علاقتك بـ (هاشم) .. بالمناسبة من هو (هاشم) ؟ »

ـ « هو خطيبى .. أعنى كان خطيبى .. وهو الآن فى (كييف) بالاتحاد السوفيتى لأنه مهندس أوفدته الدولة للدراسة .. وقد أرسل لى يحاول إعادة الود بيننا .. »

ـ «وقد بدأت تلينين نوعًا ؟»

مطت شفتها السفلى فى ضيق وشمخت برأسها .. بمعنى أن هذا ليس من شأنى ..

تراجعت للوراء معلنًا أننى سأرحل الآن ، فقالت الأم فى برود :

ـ «لم لا تتفضل وتتناول الغداء معنا يا دكتور ؟»

ـ «أكرمك الله ..»

وهو ذلك الطراز من دعوات الغداء الذى لا يتم إلا وأنت تنصرف .. مما يعنى معنى آخر تمامًا .. أنا الآن (برسونا نان جراتا) بالنسبة لهذه الفتاة .. أى شخص غير مرغوب فيه بلغة الدبلوماسية ..

* * *

كان المشهد بهيجًا عندما وصلت إلى ذلك الشارع الراقى ..

سيارة إطفاء وعدة سيارات إسعاف وأكثر من جار

بالمنامة وأكثر من جارة بثياب النوم ، كلهم فى الشارع ينظرون لأعلى ولا يكفون عن الصراخ .. ثمة سيارة شرطة وضابط ينظر لأعلى ويأمر رجاله بشىء ما ..

نظرت لأعلى إلى حيث قرر الجميع أن ينظروا فرأيت المشهد المألوف .. شاب يقف على الإفريز الخارجى لنافذة مفتوحة وقد ألصق ظهره بالجدار ، ومن حين لآخر يرفع قدمه الحافية فى الهواء منذرًا بالوثبة فيصرخ الناس ويلطمون الخدود .. من ثم يعيد ساقه للداخل .

الجديد فى الأمر هو أن الفتى كان (فوزى شفيق) نفسه .

دنوت من الزحام وحاولت اختراقه ، لكن رجلى شرطة متينى البنيان منعانى ، ونظر لى الضابط مستفسرًا فقلت :

ـ «عدم المؤاخذة .. أكره أن أعطلكم .. لكن هل تسمح لى بأن أكلم هذا الفتى ؟ أعتقد أن كلامى يهمه ..»

نظر لى الضابط فى شك .. فكر قليلاً ثم أشار برأسه للرجلين كى يطلقا سراحى ..

اتجهت إلى أسفل النافذة ونظرت لأعلى .. كان الفتى ينظر لى وقد التصق بالجدار أكثر .. يثير أعصابى فى المنتحرين أنهم يميلون إلى الاستعراض والهستيريا .. كان من الممكن أن ينهى الأمر بسرعة لكنه لابد من أن يحدث ضوضاء ، وبعد هذا كله يلتصق بالجدار كالبورص لأنه يخاف السقوط !

كان يرتدى منامته حافى القدمين ، ووجهه فى أسوأ صورة له منذ رأيته ..

صحت فيه :

ـ « (فوزى) .. هلا كففت عن هذا السخف ؟ دعنا نتكلم بصراحة .. »

من أعلى صاح :

ـ « أنا أعرف أنها لم تعدك بشىء ، بل واعتبرتنى مخبولاً .. لا تحاول الكذب .. »

انتحار من أجل عينى (غيداء) .. لا أدرى لماذا كنت أحسب الفتى أقوى وأعمق من هذا .. كان يبدو غامضًا

رهيبًا يعرف الكثير .. الآن صار طفلاً سخيفًا يعتمد علىّ بشدة ..

نظرت للأرض لأن الارتفاع أصابنى بدوار ، وقلت :

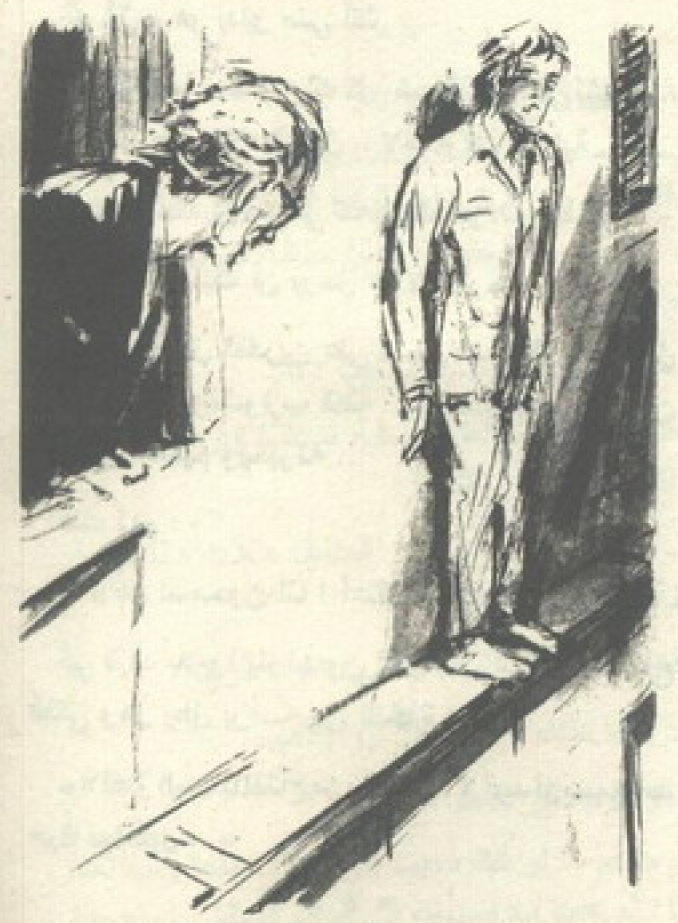
ـ « لم أحاول الكذب لحظة .. نعم هى تعتبرك مجنونًا .. لكن لابد من أن أصعد وأكلمك .. ليس من حقك أن تموت قبل أن تسمع ما أقول .. »

ـ « ليكن .. ولكن أنت وحدك .. »

نظرت للوراء إلى الضابط متسائلاً ، فهز رأسه .. بليغ جدًا هذا الرجل .. وأنا ضعيف تجاه هؤلاء الصموتين الذين يفهمون بسرعة ..

وهكذا صعدت فى الدرج متثاقلاً حتى الشقة المفتوحة ..

فى الداخل كان الأمر أقرب إلى السيرك .. كان هناك رجال إسعاف ورجال إطفاء ومن يتصفح الكتب فى المكتبة ، ومن يشعل لصاحبه لفافة تبغ ، ومن الحمام



كان الفتى على بعد مترين فوق الإفريز ومن مكاني رأيت الشارع ..

خرج مخبر وهو يغلق زمام سرواله ويجفف وجهه بمنديل .. وداخل الغرفة المختارة كان هناك ثلاثة رجال يقفون في النافذة ويصرخون ..

أفسحت لنفسي موضعًا بينهم ، وأخرجت رأسي ..

كان الفتى على بعد مترين فوق الإفريز ومن مكاني رأيت الشارع .. ليس بعيدًا إلى هذا الحد ، لكنه قاتل بما يكفي ..

قلت له ما يقولونه في كل الأفلام :

ـ « (فوزى) .. أنت لن تحل شيئًا بانتحارك .. صدقني .. »

قال وهو يرتجف وينظر للشارع :

ـ « أنت تعتقد هذا .. لكني أعرف ما لا تعرف .. »

ـ « لا بد من أن أفهم .. أفهم .. أنت جعلت حياتي مجموعة من الألغاز .. كيف لي أن أساعدك وأنا أتحرك في الظلام ؟ »

صمت برهة ويبدو أنه بدأ يلين ..

ثم قال وهو يدنو منى أكثر :

- «ليكن .. سأشرح لك كل شىء .. ولكن بشرط .. أريد أن يرحل هؤلاء الرجال .. لا محاولات بطولية .. »

- «هل تعتقد أن صحتى تسمح بالمحاولات البطولية ؟ »

- «لهذا طلبت أن يرحل هؤلاء الرجال .. »

نظرت للرجال القادرين على المحاولات البطولية .. كل هذه العضلات والشوارب الكثة .. واضح أنهم مخبرون يجيدون عملهم ويحبونه ..

قلت لهم :

- « هل تسمحون لنا ! أعتقد أن هناك فرصة .. »

فى تردد بدءوا يتراجعون نحو باب الغرفة ، فصاح الفتى وهو يطل برأسه من النافذة :

- « أغلق الباب بالمفتاح من ورائهم .. لا أريد أن يسمع أحد حرفًا مما أقول .. »

* * *

١١ - عادل هاشم ..

قال لى وهو ينفث دخان لفافة التبغ التى ناولته إياها من النافذة ، والتى جلبتها له من علبته الموضوعة على الكومود :

- « هل تؤمن بالتنبؤ بالغيب ؟ »

قلت وأنا أستند على حافة النافذة وأرمق الحشد الواقف فى الشارع تحتنا :

- « لا .. بتاتًا .. وإن كنت أنت قد طعنت هذا اليقين طعنة نجلاء .. »

قال وهو ينظر للسماء التى صارت قريبة :

- « أنا كذلك لا أؤمن بالتنبؤ بالغيب .. »

نظرت له غير فاهم ، فقال :

- «نعم .. لو أنك ذهبت إلى دار السينما وشاهدت فيلمًا ، ثم عدت مع صديقك فى اليوم التالى وشاهدتما

الفيلم ذاته ، ورحت تحكى له كل واقعة قبل أن تحدث .. لسوف يشعر زميلك بأنك تتنبأ بالغيب .. لكن هذا غير صحيح .. »

ـ « هل تعنى ؟ »

هز رأسه وضحك فى وحشية ثم راح يسعل .. ثم أضاف :

ـ « نعم .. أعنى أنى رأيت كل تفاصيل حياتكم هذه من قبل .. ألم تفهم بعد يا دكتور أننى آت من عالم الغد ؟ »

كان هذا كافيًا لى كى أفهم كل شىء .. الفتى حالة جنون متقدمة .. وقد تلاعب بى كل هذه الأيام على سبيل التسلية ..

قلت له فى ضيق :

ـ « ليكن .. ولكن لم لا تقول هذا كله وأنت داخل الغرفة بدلاً من خارجها ؟ »

قال :

ـ « أرأيت ؟ من الطبيعى أن تعتبرنى مخبولاً .. لكن

لو فكرت فى الأمر لوجدت أنه لا يوجد تفسير آخر .. أنا (عادل هاشم) الذى جاء من العام 2015 »

ـ « بنى .. »

ـ « كانت حياتى على ما يرام حتى أصبت بالمرض وقد نقلته إلى كثيرين من حولى وممن أحببت .. وهكذا صار على أن أجد خلاصًا .. إن مرض (سمولنسك) ـ كما أطلق عليه العلماء الروس ـ مرض خطير لا علاج له .. وما تراه على وجهى هو المراحل قبل الأخيرة منه ، لكن النهاية أفظع وأخطر .. والأسوأ أنك تظل بكامل وعيك حتى النهاية المريرة وتعيش كل ثانية منها .. لا أقدر على أن أظل ساكنًا حتى يحدث لى هذا ، وحتى أقضم قطعًا من لسانى كى أتغلب على الألم .. صدقنى .. لقد رأيت هذا المشهد وهو لا يفارق كوابيسى .. »

إن الكلام أقرب إلى نوع من قصص الخيال العلمى ، وإننى لأنتظر ظهور (آرثر كلارك) فى أية لحظة .. لربما (إيزاك أزيموف) كذلك .. على كل حال لقد سمعت من هذيان المجانين ما هو أكثر تعقيدًا وتشابكًا وروعة ..

قلت له محاولاً تهدئة روعه :

ـ «لكن .. أصابك مرض (سمولنسك) هذا .. وماذا بعد ؟»

لكنه أجاب عن سؤالى بسؤال :

ـ «ما هو أخطر مرض تعرفونه فى السبعينات ؟»

فكرت قليلاً ثم قلت :

ـ «ربما السرطان .. مازال عصيًا على العلاج ..»

أضاف :

ـ «أنتم لاتعرفون متلازمة فقدان المناعة المكتسبة .. المرض الذى سيسمونه (الإيدز) فى الثمانينات .. إنه مرض خطير بما يكفى لكنه سيكون أقل وطأة من مرض (سمولنسك) ..»

الآن طبعًا يدرك القراء أن الفتى صادق تمامًا ، أما أنا ـ بخبرات السبعينات الطبية ـ فلم يكن بوسعى أن أقطع بشىء ..

واصل الفتى الكلام وهو يستند إلى النافذة :

ـ «كان الاتحاد السوفيتى قد انهار تمامًا .. لكن

كان هناك من العلماء من يعرفون ما لا يعرفه الأمريكيون ، وكانوا يعملون فى صمت وبإمكانات لاتذكر .. من بين هؤلاء كان البروفسور (ميخائيل سيلينيوف) الذى تعرفته فى (كييف) والذى ابتكر جهازًا صغيرًا لنقل الناس إلى الماضى .. يبدو هذا الأمر غريبًا .. يبدو أقرب إلى الخيال العلمى .. لكنها الحقيقة أو هكذا ستكون الحقيقة .. والأجمل فى هذا الجهاز أنه يتيح لك مشاهدة كل ما حدث فى الماضى كأنه شريط فيديو ..»

ـ «كان أبواى يعيشان فى روسيا ولم يعودا إلى مصر قط، لأن أبى المهندس (هاشم) وجد أنه استقر هناك بالفعل .. وقد جاء مصر فقط ليتزوج أمى (غيداء) ويسافر معها ليقيما هناك .. وكنت أنا ولدًا نجيبًا درس التاريخ واهتم باللغات ، وقد درست اللغة الفرنسية والإيطالية واللاتينية بالإضافة إلى إجادتى للعربية والروسية طبعًا ..»

ـ «الآن هناك خيطان .. أنا أعيش مع والدى .. والبروفسور الذى ابتكر جهاز السفر عبر الأزمان ..

هنا اكتشفت أننى مصاب بمرض (سمولنسك) ..
ويجرى الأطباء فحوصهم ليعرفوا أنه انتقل إلىّ عبر
مشيمة أمى التى أصيبت به فى مصر ، لكنه لم يترك
عليها أعراضًا .. »

- « المزيد من التقصى يبين أن أمى أصيبت به
بسبب نقل دماء ملوثة فى السبعينات .. لقد ظلت
تحمله فى دمها لتنقله إلى طفلها الأول أنا .. وبدأ
المرض يظهر معى حين بلغت سنى هذه .. إن
للمرض فترة حضانة غير عادية لأنه من الفيروسات
البطيئة .. يجب أن أقول إن أمى نشرت المرض لدى
الكثيرين لأنها تبرعت بدمها ثلاث مرات فى روسيا ، وفى
ذلك الزمن كان الخطر موجودًا فى الدم لكننا لم نكن
نعرف بوجوده .. يقول الأطباء إننا سنكتشف الكثير
من الفيروسات الكبدية فى الدماء التى تنقلها
للمرضى اليوم ، لكننا لا نعرفها على الإطلاق .. لقد ظلت
المستشفيات أعوامًا تنقل الدم الملوث بالفيروس (ج)
دون أن تعرف أن هناك فيروسًا بهذا الاسم .. وبعد

أعوام عرف الطب كل شىء عن هذا الفيروس ،
وراح يفتش عن المرضى البؤساء الذين نقل لهم دم
فى الأعوام السابقة .. »

- « وهل هناك فيروس بهذا الاسم ؟ »

- « ستعرفونه فى أوائل التسعينات .. ولنفس السبب
اعتبر الأطباء أن كل من تلقى دمًا فى الأعوام من
1985 إلى 1990 هو مرشح للبحث عن (الإيدز) فى
دمه .. لأن الإيدز كان فى العالم وقتها لكن أحدًا لم
يكن يعرف بوجوده ..

- « لا يعلم إلا الله من أين جاء كيس الدم الملوث
ولا ما أصاب صاحبه .. على كل حال نحن لا نعرف
كذلك من أين نشأ الإيدز ولا التهاب الكبد (ج) ..

- « لقد نقلت أمى المرض لكثيرين ، ومنهم أنا ..
وهكذا وجدت نفسى أواجه مصيرى .. إن أحدًا لم
يشف قط من داء (سمولنسك) هذا ..

- « هنا قابلت ذلك العالم ، وكان يبحث عن متطوع
متحمس يرحل عبر الأزمان .. كنت راغبًا فى الفرار

من وقعى راغبًا فى التغيير .. قال لى العالم إنه سيتحكم فى كل شىء من محله فى (كيف) .. أى أن الجهاز لن يكون معى .. قال لى إننى سأفعل بالضبط كما قلت لك عن الفيلم .. سأدخل لأشاهد الأحداث ، لكن علىَّ ألا أتدخل أبدًا .. لو تدخلت أو حاولت أن أُحدث تغييرًا ، فأنا أجازف بأشياء كثيرة ..

- « ثمة قصة شهيرة لـ (راى برادبورى) عن فتى ارتحل إلى الماضى كى يتسلى بمشاهدة ديناصورات ما قبل التاريخ . الغلطة هنا هى أنه داس حشرة صغيرة دون قصد ، وحين عاد لعالمنا وجد أن المدن لم تعد مدنًا ، وأن لون السماء تغير ، وأن البشر اختلفوا .. لقد أدى قتل الحشرة إلى تغييرات طفيفة تضاعفت عبر ملايين السنين حتى أدت لعالم مختلف تمامًا ..

- « قبلت ما قاله الرجل ، ورحت أتزود بزاد لا بأس به من المعرفة التاريخية .. رباه ! كانت أيامًا من المرح بلا شك .. كنت قد قررت أن أزور تلك البلدان التى أعرف لغتها ، وهكذا ارتحلت إلى روما أيام (يوليوس قيصر) ، وقد أثار دهشتى أننى أنا الذى

لعب دور العراف (سبورينا) صاحب الإنذار التاريخى الشهير .. »

كنت منهكًا لا أستطيع المقاطعة لأننى لا أصدق حرفًا ، لكن غريزة الجدل عندى جعلتنى أسأله :

- « ماذا لو كان (قيصر) قد اقتنع ؟ ألا يغير هذا التاريخ بالكامل ؟ »

- « نعم لن يغير .. من المعروف تاريخيًا أنه لن يقتنع بكلام العراف .. »

ثم أشعل لفافة تبغ أخرى وقال :

- « فى مرة لعبت دور الراهب (براندانو) الذى أنذر بابا روما من الغزاة .. طبعًا كنت أعرف أنه لن يصدقنى .. بعد هذا لعبت دور الشاب (شافينى) المستشار المخلص لـ (نوستراديومس) !! »

هذه كانت أقوى من تحملى ، فصحت فى غيظ :

- « أنت كنت تعمل مع (نوستراديموس) ؟ »

قال فى استمتاع خبيث :

ـ « وكتبت له أكثر كتابه (قرون) .. من السهل تمامًا أن تكون نبوءاتك صادقة حين تكون درست كل ما سيحدث فى كتب التاريخ عام 2010 .. صحيح أن الرجل كان يرتجل أحيانًا ، وكان يحاول أن يخترع معتبرًا نفسه عبقريًا ، لكن هذه النبوءات كانت تفشل دومًا .. مثلاً تلك النبوءة السخيفة عن نهاية العالم سنة 1999 .. إنها من بنات أفكاره .. لكن الرجل كان فى نهاية الليل يعود لداره متظاهرًا بالتأمل ، ويجلس بين يدى وأنا أحكى له كل ما سيحدث فى الأعوام القادمة .. »

ـ « كان يزعم أنه يقرأ الأجوبة على قشر البيض .. »

مط شفته فى اشمئزاز :

ـ « هذا لزوم النصب .. الحقيقة أننى لعبت دورًا لا بأس به فى تدعيم خرافة التنبؤ فى تاريخ البشرية ! »

ثم أردف وهو يلقى باللفافة على الجمع المغتاظ الواقف فى الشارع .. الجمع الذى بدأ الملل يقتله ،

وبدأ يشعر بأن فى تأخير مشهد الانتحار فظاظة لا يمكن وصفها :

ـ « هنا جاء الاختيار الأخطر فى حياتى .. جاءت الخطة الأكثر طموحًا .. ولم أخبر بها البروفسور ، لكنى كنت قد رسمتها على الورق بدقة .. لقد جمعت عددًا لا بأس به من قصاصات الصحف القديمة التى تحكى بالتفصيل كل ما سيحدث فى هذا العام .. وعرفت تفاصيل كثيرة من أمى ..

ـ « ماذا لو ذهبت إلى زمنكم هذا ومنعت أمى من تلقى الدم الملوث الذى أعرف بالضبط متى ستتلقاه ؟ إن معنى هذا إنقاذى وإنقاذ العشرات .. بل وإنقاذ العالم كله من وباء مميت ..

ـ « لأسباب تقنية معينة يطول شرحها لم أستطع معرفة المستشفى الذى تلقت أمى الدم فيه ، وهى لا تذكر اسمه .. ولا تعرف أين هو .. لكنها تعرف أنها زارت طبيبًا جارًا لها اسمه (رفعت إسماعيل) فلم تجده .. وتعتقد أنها لو كانت طلبت رأيه أولا لوفر عليها التجربة المريرة ..

- « رحت أبحث فى تفاصيل حياة (رفعت إسماعيل) هذا ، فوجدت أنه سيموت فى حادث سيارة وهو فى قريته .. ولسوف يدفن .. لكنهم حين يفتحون المقبرة بعد عامين سيجدون هيكله العظمى خلف الباب ، بما يعنى أنه دفن حيًا .. كان هذا شنيعًا .. والأشنع كان أن أمى لم تلقه قط ..

- « شاهدت الكثير من مشاهد حياتك على شاشة الجهاز .. شاهدت احتراق المطعم واحتراق الدجاجة ، وتلك النصابة التى خدعتك ، ومقتل صديقك ، وشاهدت ورقة امتحان طلبتك وقمت بتصويرها .. عرفت كل شىء واحتفظت بقصاصات تحكى كل شىء ..

- « لكن كانت مشكلتى هى كيف أنقذك من الموت لتخبر أمى حين تسألك أنه لاداعى لنقل الدم .. صار علىّ أن أثير توجسك وألاحقك بمقدرتى التنبوئية كى تصدقنى فيما هو أكثر .. وقد نجحت فى هذا بدءًا باختيارى طالبًا أحمق عرفت عنه الكثير وقررت أن أهديه أسئلة الامتحان ، وانتهاء بمعرفتى من قتل محاميك .. لكنى ظللت عاجزًا عن التدخل المباشر .. لم يكن بوسعى إلا التلميح لأننى ممنوع من تغيير الماضى بأى شكل ..

- « ثم وقع الحادث .. ودفنت أنت ، ولم أستطع أن أظل صامتًا .. لن أتركك تموت هذه الميتة الشنيعة مهما كلفنى هذا .. وبالفعل ذهبت إلى أخيك وأقنعته بفتح المقبرة .. لم يكن هذا العمل من أجل مصلحتى ، لأن أمى كانت قد تلقت الدم وانتهى الأمر .

- « من هذه اللحظة لم يعد من حقى أن أعود إلى زمنى .. لقد تخلى عنى البروفسور ولعله خشى أن يعيدنى فتحدث كارثة .. وبدأ المرض يفتك بى ببطء .. »

قلت له :

- « ومن المنطقى أنك فقدت قدراتك التنبوئية بالنسبة لى .. »

- « لاشك فى هذا .. أنت بالنسبة لى شخص دفن فى تلك المقبرة ولا أعرف عنه شيئًا بعدها .. كل ما حدث لك بعد هذا خارج علمى .. وطبيعى أننى لم أتوقع أن تزورنى فى دارى .. »

- « لكن لماذا نصحتنى بمغادرة القرية وقد عجل هذا بالحادث ؟ »

- « إن الأخطاء تحدث .. معلوماتى كانت أنك تموت داخل القرية لا خارجها .. »

عدت أربط الخيوط ببعضها ، وبدأت بعض الأسئلة تتضح :

- « لهذا كانت صورة (غيداء) معك جوار فراشك ؟ »

- « من الطبيعى أن يحمل المرء صورة أمه معه .. هنا اتخذت خطتى منحى آخر .. لم لا أبحث عن أمى (غيداء) وأقنعها بقصتى ، وأقنعها بألا تتزوج أبى ؟ لماذا لا ترفض الذهاب إلى الاتحاد السوفييتى مع زوجها المقبل ؟ هكذا لن أوجد أنا .. أو سيوجد شخص آخر غير مريض .. هناك حل آخر هو أن أقتل (غيداء) لكن هل يقتل المرء أمه حتى لو كانت لم تنجبه بعد ؟ مستحيل ! بأى ثمن ! لقد قابلتها وحاولت إقناعها .. استعرضت أمامها الكثير من عضلاتى التنبؤية .. اخترت مكانًا أعرف أن حادثًا مروعًا سيقع قربه فى أثناء كلامنا .. كما استعملت بعض الارتجال كأن أتنبأ لها بأن أحد السقاة سينزلق وأنا أعرف جيدًا أن الأرض

مبتلة وأن السقاة كلهم يمشون فى خرق .. فى النهاية بدا لى أنها قد اقتنعت وهنا بدأ التغيير .. »

كنت الآن أستطيع أن أفهم .. إن الفتى يشبه (غيداء) إلى حد كبير .. تشابه لا تميزه إلا لو توقعته .. هو نسخة مشوهة منها لو أردت الدقة ..

وواصل (عادل) الكلام :

- « لقد بدأ لون عينى يتغير .. لون بشرتى يتغير .. صرت أميل إلى البدانة .. صرت شخصًا آخر .. ولم يكن لدى إلا تفسير واحد .. بالفعل أنا شخص آخر .. لم تعد أمى هى أمى أو لم يعد أبى هو أبى ..

- « كان على أن أبدأ حياة جديدة فى هذا الزمن .. وأية بداية تَحتاج إلى مال .. الكثير منه .. »

هنا شعرت بالباب ينفتح من ورائى ، وظهر أحد هؤلاء الفتية القادرين على المحاولات البطولية .. المخبرين الذين يجيدون عملهم ويحبونه .. صاح بى :

- « فيم كل هذا التأخير ؟ هل يحكى لك قصة حياته ؟ »

- « بالفعل يحكى قصة حياتين لا حياة واحدة ! »

وأشرت له كي يخرج ، ثم عدت أطل من النافذة على الفتى الذى أرهقه الوقوف كل هذا الوقت ، لكن لم يكن أمامه مفر إلا البقاء حيث هو ...

عاد يحكى قصته :

- « الأمر سهل حين تكون لديك كل قصاصات الصحف السابقة .. أنت تعرف أرقام شهادات المصرف التى ستفوز فى تاريخ معين .. تعرف متى يرتفع سعر الذهب ومتى ينخفض .. لقد كونت ثروة لا بأس بها ، بل ونجحت فى منع حريق المستشفى الذى كان سيظهر فى الصحف فى اليوم التالى .. لما منعت أنت الحريق وجدت أن قصاصة الجريدة تحولت إلى ورقة صفراء بلا كتابة ..

- « بدأت حياتى تنتظم كما ترى لولا أننى بدأت أستعيد ملامحى القديمة .. بدأ المرض يعود بشكل أكثر شراسة ، وأدركت أن لعبة ما تجرى .. العلاقات تتحسن بين (غيداء) و(هاشم) وأنا أعود للوجود من جديد بمرضى .. يبدو أن مراسلات ناجحة قد بدأت تعيد المياه لمجاريها .. إنهما سيتزوجان ! لا شك فى هذا ..

- « كان هذا حين اتصلت بك ، وانتظرت نتيجة لكن الأمور لم تتحسن .. وهكذا لم يبد لى من حل إلا ما أنا بصدده الآن .. إن الموت بهذه الطريقة أقصر أو هذا ما أتوقعه منه ... »

- « أنت أحمق ! »

ومددت يدى خارج النافذة ، وصحت فى حماسة :

- « هل تتصور موقف (غيداء) هذه ؟ أن يخرج لها شاب يكبرها فى العمر يقول لها إنها أمه ، وإن عليها أن تتخلى عن خطيبها الذى سيصير أباه ؟ كن معقولاً يا رجل وكف عن المبالغة .. لا تطالب الناس بأكثر من طاقتهم على التصديق .. »

ثم مددت يدى أكثر وأنا أرى بطرف عينى الشارع كله وقد تحفز لما سيحدث ..

قلت له فى لهفة :

- « سوف أكلمها .. سأعرف كيف أقنعها .. فإن لم تقتنع سأعمل على أن تحبنى أنا .. سأصير وسيمًا

وأجرى ألف جراحة تجميل .. ربما تزوجتنى وانتهت القصة بالنسبة لك .. إننى ... »

مد يده لى ، وهنا كانت قدمه الحافية قد تلوثت بالعرق أكثر من اللازم ، وكانت ساقاه أوهن من اللازم ، وكان توازنه قد اختل أكثر من اللازم ..

رأيته ينزلق ، ثم يهوى من أعلى .. يهوى .. يهوى ..

لماذا يقول الأغبياء إن من يسقط من حالق يملأ الدنيا صراخًا ؟ الحقيقة أن الفتى لم يجد الوقت ليقول حرفًا ..

أسندت جبهتى إلى إطار النافذة وحاولت ألا أفرغ معدتى ..

ومن مكان ما لا أعرف ما هو كانت أغنية مجهولة تتردد ..

دائمًا تتردد ..

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شىء ينتهى ..

* * *

وداعًا يا (عادل) .. لو كان لى من دور مفيد فى هذه القصة فهو أنك لن تلقى ربك منتحرًا ، وإنما ضحية حادث سقوط ، أو هذا ما أرجوه ..

لم يعد من ذيول لهذه القصة ، لأننى ما زلت أجد غريبًا أن أطالب (غيداء) بالتخلى عن خطيب المستقبل بسبب مرض (سمولنسك) .. أو أطالب (هاشم) بالعودة من الاتحاد السوفييتى حالاً ..

القصة غريبة وما زالت لا تستقر بشكل مستريح فى أعماقى .. لو كان (عادل) قد أنقذنى فعلاً ، فمن

المفترض أن هذا صار ماضيًا .. وكان ما سيعرفه عنى فى الغد هو أننى دفنت حيًا وأن هناك من أنقذنى ..

عندما يموت (عادل) فى الماضى، فهل معنى هذا أنه اختفى من المستقبل؟ لماذا لم ير نفسه ومحاولاته ولقاءاته مع (غيداء) ومعى؟

إن كل هذه الأسئلة تثير الدوار، وتذكرنى بلغز (كريت): أهل (كريت) كذابون .. والمتكلم من (كريت) .. إذن هو يكذب .. إذن هم ليسوا كذابين .. إذن كلامه صادق .. إذن ...

رباه! سأفقد وعيى!

* * *

فى القصة القادمة أحكى لكم عن شخص متوحد آخر .. غريب الأطوار كما كان (عادل) بالضبط لكن له سرًا آخر..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة العرّاف

ساد البلاط صمت رهيب ،
وفي النهاية تكلم الرجل ..
كانت كلماته بطيئة محيرة رهيبة تخرج
كأبيات الشعر :

"الأسد الصغير سيهزم الأسد الكبير ..
في مبارزة فردية ..
سيخترق عينيه في قفص ذهبي ..
يصبح الجرحان واحداً ..
ويموت ميتة شنيعة ..!"

ثم رفع عينيه الناريتين نحو الملكة وقال
ببطء :
"هل أجبت سؤال مولاتي ؟"



د. أحمد خالد توفيق

مطابع ... العلمية

ـــه

الثمن في مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة (99###)